نساء الكرملين

تأليف / لاريســا فاسيـلـيـفـا

ترجمة / د. أحـمـد الـخـمـيـسـى

القاهرة – 1997

مقدمة

لاريسا فاسيليفا شاعرة وصحفية ومؤلفة مسرحية روسية شهيرة ، لها ما يربو على عشرين مجموعة شعرية ،ومجموعة قصصية واحدة ،ورواية " كتاب عن أبى " ،ومسرحية "أغصان الزيزفون " وعدد آخر كبير من المؤلفات التى صدرت فى روسيا وفى الخارج ،ويعرفها جمهور واسع من القراء باعتبارها كاتبة صحفية تولى عناية للقضايا والمواضيع النسائية فى مقالات كثيرة.

تعيش لاريسا فاسيليفا حاليا فى موسكو ،وهى عضوة اتحاد الأدباء وكذلك رئيسة للرابطة الدولية للكاتبات.

يعتبر كتاب "نساء الكرملين " الذى أثاراهتماماً واسعاً ، دراسة صحفية وفنية ونفسية ـ إن لم يكن أيضا دراسة تاريخية ـ للمصير الصعب ،والمأساوى أحيانا ،والمجهول للنساء اللواتى قدر لهن أن يصبحن زوجات ل "زعماء " الكرملين ، وأن يقاسمن أولئك القادة السكن والطعام وتفاصيل الحياة اليومية . وسوف يطالع القارىء ـ للمرة الأولى ـ قصة ذلك المثلث الفريد : لينين زعيم الثورة ـ كروبسكايا زوجته ورفيقة دربه ـ اينيس أرماند عشيقة لينين ، وسيكتشف القدر المأساوى لناديجدا اليلويفا زوجة ستالين ،وستتجسد أمام القارىء بفضل القلم الفنان للكاتبة ،الصور الحية لزوجتى مولوتوف وزير الخارجية وكالينين رئيس الوزراء ورئيس مجلس السوفيت اللتين ألقت بهما الأقدار فى المعتقلات الستالينية وسيفتح الستار الكثيف الذى لم ينفتح لاحد من قبل عن الحياة المعقدة ،المبهجة لنينابيريا زوجة بيريا ،وزير الداخلية الستالينى ،والشخصية الدموية التى لم يعرف التاريخ مثيلا لها ،والذى أعدم عام 1953، ويتطرق الكتاب بالتفصيل إلى حياة نينا خروتشوفا ، والى أسرار فكتوريا بريجنيفا التى عاشت فى الظل مع بريجنيف،وينتهى الكتاب بقصة السيدة الأولى و الأخيرة أيضا للإتحاد السوفيتى رئيسا جورباتشوفا ،زوجة صانع البيرسترويكا .

وتعتمد لاريسا فاسيليفا مؤلفة الكتاب الممتع على مواد من الأرشيفات ووثائق وأحاديث خاصة مع " زوجات الكرملين " أنفسهن ،وأقربائهن ،ومذكرات من عاصروا أولئك النساء .

وقد ساعد المؤلفة كثيراً فى عملها أنها نفسها تنتمى للأوساط القريبة من الكرملين ، كما تكتب هى وذلك نظرا لأن والدها كان يعمل مصمما للدبابات ،مما سمح للأسرة بمخالطة القمم الحاكمة ،وسمح للمؤلفة بتفهم الطبيعة النفسية لمن عاشوا فى الكرملين . وسيكتشف القارىء كل ذلك بنفسه ،من التفاصيل التى تعكس صورة " الكرملين " ،وأشياء أخرى كثيرة .

د . أحمد الخميسى

(1)

ناديجيدا كروبسكايا

حلت امرأة جديدة فى الكرملين صيف 1918 ،ولم تكن القيصرة الجديدة ـ كما كانوا يطلقون عليها فى البداية ـ معروفة الا للقلائل فى روسيا . إنها ناديجدا قسطنطينوفنا كروبسكايا ،رفيقة درب الرجل الذى قاد الثورة حتى انتصر ، زوجة لينين . وعندما نزلت كروبسكايا فى الكرملين ، كان عمرها تسعا وأربعين سنة ،فلم تكن شابة ،ولم تكن وسيمة أيضاً : وجه كبير منتفخ ،وشفتان نافرتان للأمام ،علامة على الحسية،اسنان بيضاء متباعدة لم تصطبغ بنيكوتين الدخان ،جبين كبير مفتوح كأنه يقول للجميع أن الجبين عضو للتفكير،وشعر ناعم مفروق من منتصف الرأس و ملموم فى جديلة مهموشة للخلف ،وأنف كبير يدل على دماثة الخلق ،وحاجبان لم يعرفا التخطيط فوق عينين جاحظتين متباعدتين ذاتى مقلتين مرتجفتين وجفنين ناميين فوقهما مما أكسب الوجه تعبيرا ناعسا عابساً.وكان جسمها ممتلئا ،وكان مستويا دون تلك التقاسيم الانثوية ،وهيئتها مستقيمة تشى بأنها خريجة مدرسة راقية ،ومشية متمهلة ،وكفان رائعتان مع أظفار غير معتنى بها تدل على أن صاحبتها إما تكتب كثيرا أو ترسم كثير دون أن تعنى بابراز القليل الذى يمكن أن تكون بفضله جذابة كامرأة.

ناديجدا قسطنطينوفنا كروبسكايا ،التى تحتم عليها أن تعيش فى الكرملين ،ليس فى المخادع الفاخرة للقياصرة السابقين ،إنما فى شقة متواضعة أعدت لها وللينين خصيصا .

ولم تكن كروبسكايا لتعترض .فزوجة زعيم البروليتاريا لابدأن تحيا حياة متواضعة.

ويشهد كل شئ على أنها لم تعتد شيئا آخر ،سوى تلك الحياة ،ولعلها لم تكن تتوق لشىء آخر .و لم تكن كروبسكايا معروفة إلا لقلة قليلة فى روسيا.فقد عاشت أربعة عشر عاما ،قبل عام 1917 ،خارج البلاد ،مع فترات انقطاع قصيرة كانت تزور روسيا فيها. فمن أين لروسيا أن تعرفها؟ وهل كانت كروبسكايا نفسها تعرف روسيا التى تعين عليها إلى حد ما أن تحكمها ؟ أن انقطاع كروبسكايا فى المهجر عن وطنها أمر واقع ،وبداية القرن العشرين لا تشبه نهايته :

فى زمن كروبسكايا لم تكن هناك وسائل الاعلام والاتصال كالاذاعة ،والتلفزيون ، التى تجعل

الإنسان وهو بعيد كأنه فى وطنه .

لكننى أعتقد أن كروبسكايا كانت مهيئة لروسيا أكثر مما كانت روسيا مهيئة لاستقبال كروبسكايا ، وكانت كروبسكايا مستعدة للخوض فى الحياة الروسية أكثر مما كانت الأميرات الألمانيات اللواتى تبوأن العرش الروسى مستعدات لتلك المهمة .

ولا أقول ذلك ذما فى الأميرات ولا مدحا لكروبسكايا ، وإنما للإنصاف ، لأن ناديجدا وضعت أمام عينيها هدفا نبيلا منذ نعومة أظافرها ألا وهو سعادة الشعوب الروسية ومستقبلها المشرق .

ولكن هل كانت كروبسكايا نفسها سعيدة يا ترى ؟ وكيف كانت تدرك ما هى السعادة ؟

إن الاجابة على هذين السؤالين تكمن فقط فى سيرة حياتها ، المفعمة بالألغاز والأسرار ، على الرغم من أنها سيرة يظن الكثيرون أنها معروفة لهم تماما.

لقد ولدت ناديجدا عام 1869 ، ابنة وحيدة ليليزافيتا و قسطنطين كروبسكى ، وترعرعت وسط محبة والديها . ولكن عالما آخر من الشوارع الفقيرة والصبيان الذين يهيمون على وجوههم بملابس رثة ، كان يربض خلف باب شقة أسرة كروبسكايا .

وكان والداها يطمحان لأن تتلقى ابنتهما تعليما راقيا عصريا ، فأدخلاها احدى أفضل مدارس روسيا حينذاك وهى مدرسة الأميرة أبولينسكايا ، وكانت مدرسة خاصة ، إلا أن نشاطها لم يقم على أسس تجارية ، فقد أنشأها فى الستينات و السسبعينات من القرن الماضى المتحمسون من جماعات " الشعبويين " ، الذين كانوا يدعون لاسقاط القيصرية اعتمادا على الفلاحين. وتعلمت عند أبولينسكايا فتيات مختلفات ، من الأوساط الارستقراطية ، وعائلات كبار التجار ، وممثلى الفئات الوسطى من المثقفين الثوريين . وكانت فتيات كثيرات - فى مدرسة كهذه - يحلمن بتكريس حياتهن لخدمة الشعب والارتقاء به ، خاصة أن المرأة الروسية المتعطشة للعلوم فى النصف الثانى من ذلك القرن ، كانت قد بدأت تخرج من الإطار الضيق للإهتمامات الأسرية إلى المجال الاجتماعى العام ، وأدى احتكاك المرأة بالحياة العامة إلى أنها شرعت تبحث لنفسها عن دور اجتماعى مؤثر ، تبذل فيه طاقاتها لتقدم المجتمع . وبطبيعة الحال توجهت المرأة بأنظارها إلى المثقفين من الرجال الذين كانوا يصارعون السلطة ، وكان الدور المتاح للمرأة هنا هو دور المساعدة الوفية للرجل .. وكان ذلك الدور كافيا لارضائها حينذاك .

هكذا ظهرت فيرا زاسوليتش (1849 - 1919) ، التى قادت مجموعة من الحلقات الثورية وأطلقت النار على عمدة بطرسبورج " تربيوف " ، واختبرت السجون و المنافى ، وساعدت لينين فى المهجر ، لكنها استقبلت ثورة أكتوبر بعداء واضح ، وماتت مصابة بخيبة أمل عميقة فى الحياة .

وهكذا ظهرت فيرا فيجنير (18522 - 1942) وكانت من الشعبويين ، ثم صارت مع الاشتراكيين الثوريين ، وشاركت فى عملية اغتيال القيصر ألكسندر الثانى ، وصدر عليها حكم بالاعدام ، وسرعان ما استبدل و اقتصر على السجن فى قلعة سلسلبورج ببطرسبورج ، حيث قضت هناك مدة العقوبة ، ثم عاشت بعد ذلك حياة مديدة فى موسكو تراقب دون مساهمة تذكر كيف غير القرن العشرون وجه أفكار الثورية السابقة .

وهكذا ظهرت صوفيا بيروفسكايا (1853 - 1881) ، وهى شعبوية شاركت فى محاولة اغتيال القيصر ألكسندر الثانى ، وأعدمت لتصبح أول امرأة فى روسيا يتم اعدامها بسبب قضية سياسية .

هؤلاء هن الرعيل الأول الذى تفتح به الربيع النسائى المأسوى ، وهؤلاء هن اللاتى عددت بجميع انتصاراتهن وهزائمهن الجيل اللاحق الأصغر من نموذج المرأة الجديدة التى كان لابد لها أن تنتصر .

بعد أن أنهت كروبسكايا الصف الثامن من المدرسة عام 1887 ، حصلت على شهادة تتيح لها ليس فقط التدريس ولكن تعليم قواعد السلوك العام ، وكانت تمارس بنجاح اعداد تلميذات مدرسة الأميرة أبولينسكايا للإمتحانات . ولم يكن لكروبسكايا خيار آخر سوى التدريس ـ كما أعتقد ـ لأن أحدا لم يكن قد تقدم لخطبتها بعد .

وكانت كروبسكايا التى بلغت سن الزواج تعزى والدتها القلقة لغياب الخطباء قائلة: " إننى مثل الطبيعة الروسية لا أتميز بألوان زاهية " .

ويلاحظ المرء فى السلوك غير الاعتيادى لكروبسكايا غير الوسيمة شعورها اليقينى بأن لها طريقها الخاص ، إنها لا تحلم بالرجال والحياة الأسرية ، لأنها لا تهتم " بمثل هذه الترهات " .

وستسلك كروبسكايا بالفعل طريقا آخر .. وستكرس نفسها ليس لرجل واحد ولكن للمجتمع بأسره .

وبدا لها ذات مرة أن بداية الطريق الذى تقصده قد لاحت فقد طالعت فى إحدى الجرائد دعوة من الأديب المحبب لديها ليف تولستوى ، موجهة للفتيات المتعلمات لمراجعة وتبسيط الكتب المعروفة لكى يتمكن بسطاء الناس من قراءتها بسهولة والتعلم من خلالها .

إنه عمل سخيف . أدركت ذلك ناديجدا كروبسكايا خلال العمل نفسه ، ولكن لم يكن من خصالها أن تترك عملا ما بدأته دون أن تنهيه . وخلال انتظارها لرد تولستوى عليها ، ترددت ناديجدا على حلقات أنصار تولستوى أكثر من مرة، واستقرت على رفض كل ذلك ، فقد أوحى لها طابعها الشخصى بالبحث عن شىء مؤثر وفعال حقا .

وفى ربيع 1890 طالعت ناديجدا كتاب " رأس المال " لماركس ، وتذكرته فيما بعد قائلة : " كنت كأننى أشرب ماء منعشا . لا يجب البحث عن الطريق لمجتمع أفضل فى عمليات الارهاب الفردية ، ولا فى دعوة تولستوى لتطوير الذات . كلا.. إن الحركة العمالية الجبارة هى المخرج .

وهكذا تبددت تلك الفتاة اللطيفة الساذجة التى كانت تبحث عن طريق . وهكذا ظهرت ناديجدا كروبسكايا .

فى خريف 1890 تركت كروبسكايا دورة " بيستوجيف " التعليمية النسائية ، التى تمتعت بسمعة طيبة ، تركتها بحثا عن طريقها الخاص فى مجال التربية والتعليم .

وكانت تتردد على حلقة " كلاسون " ، وتجلس فى المكتبة العامة طويلا مستخدمة بطاقة استعارة الكتب الخاصة بكلاسون . وعثرت كروبسكايا لنفسها على دور أفضل : تنوير الطبقة العاملة بالتدريس فى مدرسة مسائية للعمال . وهناك كشف عن موهبتها التربوية والتمثيلية ، التى جمعت بين القدرة على التنوير ، والقدرة على الدعاية .

وبحلول ديسمبر 1894 بلغت ناديجدا كروبسكايا خمسا وعشرين سنة . ولم تكن ناديجدا تهتم بمفاتن الطبيعة أو متع الحياة ، منخرطة فى تدريس النظرية الماركسية فى تلك المدرسة المسائية ..

وتحت ستار الاحتفال بأحد الأعياد أقامت حلقة كلاسون مناظرة ماركسية ، ولم يكن لناديجدا رغبة فى الحضور أو المشاركة . لقد اجتازت هذه الحلقة من قبل ، ولم يكن اهدار الوقت عبثا من طبيعتها . لكن كلاسون هز كتفيه وقال إن المناظرة ستكون ممتعة ، إذ سيشارك فيها " أحد أبناء الفولجا " وهو شخص غريب جدا .

وخطر لها فورا : " أليس هو ذلك الرجل الذى سمعت عنه ذات مرة من قبل ؟ " وعلى أية حال فإنها قررت أن تحضر المناظرة برفقة صديقتها زينائيدا ، وفى المساء استعملت كروبسكايا قبل ذهابها عن الرجل . إنه فلاديمير أوليانوف . عمره أربع وعشرون سنة ، وأن كان يبدو أكبر من هذه السن .

وتصادف بصورة أو بأخرى ـ ربما بمشيئة الأقدار أو ربما خططت ناديجدا لذلك ـ أنها التقت به عند خروجها من المكتبة ، فسارا فى الشوارع طويلا حتى بلغا منزلها . وأثناء سيرهما وحديثهما لمعت فى رأسها ، على مخمل الذاكرة الأسود ، كلمات اوليانوف الملتهبة : أن الثورة ممكنة وقريبة .

وقد حدد ذلك المساء ، وذلك اللقاء مصير ناديجدا للأبد . فقد ظلت الثورة حب كروبسكايا الوحيد دائما . وكان ينقص هذا الحب هدف مركز . وهاهو قد ظهر . وأصبح فلاديمير اوليانوف (لينين) خيارها ليس كزوج وإنما كزعيم ، فوثقت به دون أيه تحفظات .

كثيرا ما يتخاصم من درسوا حياة لينين و كروبسكايا حول تفسير ردها " الغريب " على لينين عندما كتب إليها بعد عدة سنوات من لقائهما الأول وهى فى السجن ، طالبا منها أن تصبح زوجته .

كتبت إليه قائلة : " طيب ، فليكن زوجة " .

ولا أدرى ، لماذا أثار هذا الرد كل ذلك الجدل . فقد أدلت كروبسكايا بعبارة واضحة
تماما ، فهى مستعدة لقبول أى شىء يعرضه هو .

ووصلت العروس لخطيبها متأخرة ، وعبر مصاعب جمة . بعد أن أطلق سراحها ، وصلت إلى خطيبها الذى كان فى ذلك الوقت منفيا بسيبيريا فى قرية شوشينسكويه ، ووصفت كروبسكايا ذلك المنفى فيما بعد (1898 - 1900) كصفحة سعيدة فى حياتها . وفى ذلك الصقيع أرغمت السلطات العريسين على الزواج وفقا للطقوس الدينية المتبعة ، ويا لها من فرحة أحستها يليزافيتا والدة

كروبسكايا : فما دام القس قد بارك الزواج ، فإنها ستكون زيجة سعيدة ، فقد باركها بصرف النظر عن معتقدات الزوجين الشابين .

ومنذ الأيام الأولى للحكم السوفيتى بدأ الصراع من أجل السلطة داخل جدار الكرملين ، وبدأ غير ملحوظ فى أول عهده ولكن أشكال الصراع سرعان ما تفشت أكثر فأكثر ، وكان صراعاً داخلياً قاسيا ، شغلت كروبسكايا مكانها فيه ، واستطاعت أن تثبت للجميع أنها ليست مجرد ملحق نسوى للينين ، وأخذت على عاتقها قضية التعليم الشعبى ، وبمبادرة منها ألغيت مادة الدين فى جميع مدارس البلاد .

وأصبح حظر الكتب منذ البداية قاعدة سارية من القواعد التى تحكم الحياة السوفيتية ، وبدأت ناديجدا كروبسكايا الرقيقة الطباع والشديدة التواضع، عملية الحظر تلك ، التى حجبت عن أجيال متلاحقة شريحة كاملة من أعمدة الأدب والفكر : ميخائيل بولجاكوف ـ أندريه بلاتونوف ـ آنا اخماتوفا ـ نيكولاى جوميلوف ـ مكسيمليان فولوشين ـ مارينا تسفيتايفا ، ومن ثم بوريس باسترناك ، وبذلك صارت ممنوعة أفضل صفحات الأدب والفن كلها والتى سجلها ابداع القرن العشرين .

وفى نوفمبر 1923 كتب جوركى لصديقه فى الخارج يقول : " من الأنباء التى تصيب العقل بالذهول أن كروبسكايا منعت فى روسيا قراءة افلاطون وكنط وشوبنهاور والفيلسوف فلاديمير سولوفيوف وجون ريسكين ونيتشه وليف تولستوى ونيكولاى ليسكوف " .

أثار مرض لينين المفاجىء لدى كروبسكايا خوفا شديدا ، ولأول مرة خلال سنوات ما بعد الثورة ألحت عليها الفكرة التالية : ما الذى سيحدث إذا اختفى لينين ؟ وكانت الأحاديث عن عزل لينين تنتشر فى أوساط الحزب شيئا فشيئا . وصار ينتقل من فم إلى آخر المثل القائل : " لقد أنجز المغربى مهمته ، وعلى المغربى أن ينسحب " ، وهو المثل المأخوذ من مسرحية " عطيل " لشكسبير .

ولقد أصابت نوبة المرض الأولى لينين عندما كانت المعركة الحزبية الداخلية فى أوجها . وشغلت كروبسكايا على الفور موقع الدفاع عند سرير الزعيم المريض ، وكان ذلك حقها كزوجة ، وواجبها أيضا .

عاش لينين بعد النوبة الأولى لمدة عام كامل تقريبا . ولم تكن تفارقه ، إذ أدركت أن صفحة التاريخ التى كتباها معا ستقلب ، وأفزعها هاجس أن حياة الدولة كلها التى جمعها لينين فى قبضة على نحو متعجل ستجد نفسها فى قبضة أخرى أشد احكاما ، وصرامة ومدعاة للرعب

وقد عاشت كروبسكايا بعد وفاة لينين خمسة عشر عاما ، وكان مرض قديم بها يعذبها ويرهقها ، لكنها لم تستسلم ، وكانت تعمل يوميا ، تكتب المقالات وتوزع الإرشادات ، وتعلم الناس كيف يجب عليهم أن يعيشوا ، وكتبت أيضا مذكراتها الماضى ، ثم أعادت كتابتها عدة مرات ، حيث كانت تبسط الماضى ، وتجعل منه صفحة مستوية ، كأنها تمر عليه بالمكواة . ويتراءى فى هذا الكتاب كيف كانت ناديجدا تترنح تحت ضغوط العهد الستالينى ، وأن كانت لا تنثنى ولا تنكسر مع ذلك . وإذا قرأنا أسطر هذا الكتاب ، وما بين سطوره ، فسنرى صورة للسيدة التى أنشأت الآلة الجهنمية ، والتى طبقت أفكار لينين بكاملها .

فى 26 فبراير 1939 كانت كروبسكايا تحتفل بعيد ميلادها السبعين . واجتمع أصدقاؤها لديها فى شقتها مساء يشاركونها الاحتفال .. وأرسل ستالين " طورطة " ، وأكل منها الجميع ، لكن كروبسكايا وحدها هى التى ماتت فى المستشفى صباح اليوم التالى نتيجة لتسمم حاد ..؟

فيما بعد كان ستالين شخصيا هو الذى يحمل الوعاء الذى ضم رماد كروبسكايا ..

***

(2)

اينيس أرماند .. صديقة لينين ؟

ـ اينيس أرماند ؟
ـ ما أجمل وقع هذا الاسم على السمع إنه يرن محاطا بالغموض والجاذبية ، موحيا فى نفس الوقت بشىء ما جليل ، وخفيف كالهواء . فمن هى صاحبة هذا الاسم ؟ سأحاول هنا الاستفادة من الوصف الذى تضمنه كتاب " بافل بودلاشوك " لاينيس أرماند : " كانت اينيس جميلة جمالا خارقا .. بل إنها كانت تحرق المساحات من حولها بفتنة طبيعية باهرة بجبين صاف ، وفم مرسوم بدقة ، وأذنين صغيرتين مفتوحتين ، ينسدل شعرها فى ضفيرتين طويلتين ، أما عيناها فكانتا ضاربتين للون أخضر عجيب ، مشعتين ، يقظتين ، تنظران بعيدا نظرة ثاقبة . وعندما كانت اينيس تظهر وتشرع فى الكلام بطريقتها الآسرة مبتسمة أو متهجمة ، كان كل ما فى الوجود يسارع بالاختفاء ما عداها " .

إنها اينيس أرماند رفيقة درب لينين وكروبسكايا ..

عندما توفى الممثل الفرنسى تيودور ستيفان ، وزوجته ناتالى فيلد ، الممثلة أيضا ، تركا من بعدهما صبيتين شقيقتين يتميتين : اينيس التى بلغت الخامسة عشرة ، ورينيه الأصغر منها بعام . ولم تجد الصبيتان أمامهما فرصة إلا السفر إلى روسيا ، حيث تعيش خالتهما على تدريس اللغة الفرنسية والموسيقى لأبناء أسر التجار الروس الأثرياء .

ومن بين العائلات التى كانت خالة الصبيتين تتردد عليها : عائلة أرماند الكبيرة الثرية ، التى تعود بأصلها لباريس ، وكان عميد العائلة يفجينى أرماند من كبار ملاك الغابات والأراضى ، وكان له معمل للنسيج ، وآخر لصباغة الأقمشة فى بوشكينو الواقعة على مبعدة من موسكو ، وكان لديه أيضا بيوت عديدة يؤجرها . ودفعت الأصول الفرنسية لآل أرماند بالعائلة للتعلق الخاص بالصبيتين : " اينيس " و " رينيه " ستيفان اللتين أخذتا تترددان على العائلة مع خالتهما ، ولاحظ " آل أرماند " فورا أن هاتين الصبيتين القادمتين من باريس رأسا كانتا ـ غير أنهما تتقنان العزف على البيانو ـ وسيمتين للغاية ولماحتين ، تتحركان بخفة ورشاقة .. وقد حلقت الصبيتان فى أجواء آل أرماند كأنهما عصفورتين غريبتين تحملان على أجنحتهما قطرات من نور عالم آخر .. وكان فى انتظار الصبيتين شبان تتعطش قلوبهم لمشاعر الحب الجارفة الرومانسية ، هم الأبناء الثلاثة ليفجينى أرماند : ألكسندر ، وفلاديمير ، وبوريس ..

وتزوجت اينيس من ألكسندر أرماند ، وتزوجت رينيه أخاه بوريس ، وأصبح لاينيس وأختها اسم عائلة أرماند .. وأحست أينيس بالسعادة فى ارتباطها الجديد .. بل وبدا أن حياتها الجديدة تمضى بسلامة نحو شاطىء الاستقرار

والهناءة ، خاصة بعد أن أنجبت أولادها : ألكسندر ، وفيودور ، واينيس وفارفارا .. أليست تلك رسالة المرأة الخالدة ؟ .. أن تهب الحياة الوليدة للحياة نفسها ؟ ..

وترافقت سنوات شباب اينيس مع صحوة الوعى الاجتماعى فى روسيا، الصحوة التى تعطشت لأن تثبت ذاتها فى حركة فعالة ، وصارت المرأة لا تستعجل عودتها للبيت والأسرة ، بقدر ما أخذت تسارع الخطو من البيت والأسرة إلى خضم الحياة الاجتماعى ، مأخوذة بحمى الزمن ، مما أفضى فيما بعد لتشكيل " نموذج " تلك المرأة التى تبدلت فجأة ، والتى اجتازت فيما بعد ، بمشكلاتها التى لم تحل ، عقود القرن العشرين كلها ، وهى تحمل خلال ذلك رايات الصراع الرجولى وكأنها راياتها هى .

ولم تستطيع صورة المرأة الأسرية عند تولستوى أن تسكن فؤاد اينيس أرماند باعتبارها نموذجا نسائيا ، لكن صورة أخرى لنموذج آخر تغلغلت فى عقل ومشاعر اينيس ، وليس وحدها ، بل المئات من نساء روسيا ، صورة " فيرا بافلوفنا لوبوخينا كيرسانوفا " التى رسمها " تشيرنيشيفسكى " باقتدار فى روايته " ما العمل ؟ " . لقد استدعى الروائى المعروف بشخصيته النسائية تلك العجائب وسط الفكر الاجتماعى والمثقفين حينذاك .

فى تلك الرواية تجد البطلة نفسها بين عاشقين متيمين بها ، مستعدين للاقدام على شتى المآثر لأجلها.. ترى هل ثمة امرأة لا تسعدها هذه الحالة ؟ .. ولم يتحتم على اينيس ـ الزوجة السعيدة الموفقة لألكسندر أرماند أكبر الأشقاء ـ أن تبحث عن الضلع الثالث لتلك السعادة بعيدا ، فقد كان على مقربة منها تماما ، كان فلاديمير أرماند شقيق زوجها الذى أوغل أبعد من أخيه الأكبر فى إيمانه بالمعتقدات الثورية ، وقد سمح الاختلاط العائلى لاينيس أن تلمس مدى القربى الروحية والفكرية التى تربطها بفلاديمير ، وشيئا فشيئا ، يوما بعد يوم ، أدركا أنهما يحبان بعضهما البعض .

وسمح الأخ الأكبر ألكسندر ـ بنبل وترفع جريحين ـ لزوجته بالانفصال عنه بصحبة أطفاله الأربعة . وانتقلت اينيس أرماند إلى مسكن جديد فى شارع استوجنكا بموسكو ، مع زوجها الجديد ، وهى تستشرف مرة أخرى آفاق حياة مترعة بالسعادة والروعة .

ووقع فلاديمير فى أسر السحر الثورى لاينيس ، وتقبل رؤاها وأفكارها بالكامل ، وكان لديه استعداد مسبق لذلك ، فسار مع اينيس إلى حيث قادته ، وقد سبقته هى بخطواتها على الدرب الذى أفضى إلى السجون ، والمنافى ، ثم المهجر . وكان مخطط تشيرنيشيفسكى يتخلق مرة أخرى ، ويتجسد ثانية ، فى سنوات وشباب بطلين آخرين مخلوقين من لحم ودم .

خريف عام 1908 ، كتبت اينيس رسالة منفاها فى " ميزين " تقول فيها لصديقيها الزوجين " اسكينازى " :

" إن ما تقتضيه المصلحة الشخصية والأسرية للإنسان شىء ، وما تقتضيه المصالح الاجتماعية العامة شىء آخر ـ والفرق بين هذه المصالح هو

أحدى أصعب المشكلات التى يصطدم بها المثقف الحديث ، لأنه مضطر للتضحية إما بحياته الخاصة ، أو حياته العامة كجزء من المجتمع " .

ولم تمر عدة أيام بعد كتابة اينيس لتلك الرسالة إلا وأذهل الكثيرين نبأ تمكنها من الهروب من منفاها فى " ميزين " الأكثر من ذلك أنها تمكنت قضاء بعض الوقت فى موسكو رغم بحث الشرطة عنها فى كل مكان كما التقت بأطفالها لدى والدهم وزوجها الأول الكسندر أرماند ، ثم تسللت بعد ذلك سراً عبر الحدود هاربة إلى فنلندا .

وكان المفروض أن يكون فلاديمير أرماند زوج اينيس فى انتظارها فى فنلندا بعد أن سافر قبلها ليكون فى استقبالها وفق مخطط اينيس . ومن فنلندا عاودت اينيس الكتابة لأسرة " اسكينازى " قائلة فى أولى رسائلها لهم : " توفى فلاديمير بعد وصولى بأسبوعين اثنين ، وجثم على قلبى شعور مرير بأن مصابى لا يعوض ، فقد كانت سعادتى الشخصية كلها مرتبطة بوجوده ، ولم أكن أظن عند وصولي أن حالته سيئة إلى هذه الدرجة ، وكنت أعتقد أن كل ما يلزمه هو عملية جراحية صغيرة يشفى بعدها . لكنى فقدته فجأة .. وتبددت بغيابه سعادتى الخاصة التى يشق على الإنسان أن يحيا بدونها " .

وفى نفس الرسالة تتحدث اينيس عن مشاريعها التى تعدها للمستقبل والتى تحوم حولها سعادة أخرى تماما فتقول : " سأنتقل إلى باريس ، وأريد هناك أن أجرب القيام ببعض الاعمال ، أريد مثلا التعرف إلى الحزب الاشتراكى الفرنسى ولو وفقت فى ذلك فإننى سأكتسب ولو قليلا من الخبرة والمعرفة التى ستساعدنى مستقبلا فى عملى المقبل " .

إن اينيس الثورية لا تبدل مسارها ، ولا تنحرف قيد أنملة عن الطريق الذى بدأت تقطعة ذات يوم ، وكانت اينيس تعود خلال ذلك شيئا فشيئا لحالتها الاولى الطبيعية ، متجاوزة خسارتها التى منيت بها حين فقدت زوجها فلاديمير ، وكانت تطوى صفحة من حياتها لتفتح صفحة أخرى .. يطل منها لينين زعيم الثورة البلشفية .. لكن أين تعرفت هذه الأرملة الشابة الفاتنة إلى لينين ؟ .. إنه السؤال الذى أضنى كل من حاول الاقتراب من قمة العلاقة بين اينيس ولينين .. هل تعرفت إليه فى مقهى من مقاهى باريس التى كان يتجمع فيها الاشتراكيون الديمقراطيون الفرنسيون ؟ أم فى مطعم من المطاعم الرخيصة للمهاجرين الروس المعدمين ؟ .. أم فى أحدى قاعات المكتبة الروسية بباريس الواقعة فى شارع جوبلين التى كان لينين دائم التردد عليها ؟ .. أم أنهما ربما تلاقيا فى المطبعة الحزبية بشارع أوليان ؟ ،أو فى بروكسل حيث استقرت اينيس أخيرا وحيث وصل لينين للمشاركة فى دورة للاشتراكية الدولية ؟ .. لا يعرف أحد أين جرى اللقاء الأول الذى ترك أثره فى الاثنين معا..، إنا لا ندري أين ، لكننا نعرف متى .. كان ذلك عام 1909 ..

كانت ناديجيدا كروبسكايا امرأة تتسم بقدرة هائلة على تكتم كل شيء والالتزام الصارم بقواعد السرية التى اقتضتها طبيعة نشاطها المعادى للقيصرية ، وكان بوسع كروبسكايا أن تلزم الصمت مؤقتا عما تراه فى انتظار تحقيق هدفها ولم يكن لديها سوى هدف واحد : انتصار الثورة ، ولو كان وقوع لينين فى غرام

اينيس سيدفع الثورة خطوة للأمام ، لعلت كروبسكايا فوق القوالب الاجتماعية المحددة ، ولتسامت على كبريائها الذاتية النسائية كأمراة . كتبت كروبسكايا تصف فى واقع الأمر ما الذى كانت اينيس تعنيه بالنسبة لها قائلة : " عام 1910 وصلت اينيس أرماند إلى باريس قادمة من بروكسل ، وسرعان ما أمست أحدى العضوات النشيطات فى مجموعتنا الباريسية ، وكانت بلشفية الحماس ، وأخذ جمهورنا الباريسى يتحدث حولها بسرعة بالغة " .. وتذكرت كروبسكايا فيما بعد الايام التى عاشتها فى بورنين وكراكوف حيث قضت وقتا فى صحبة اينيس ، فكتبت تقول : " فى منتصف عمل المؤتمر جاءت اينيس إلى بورنين ، وكانت علامات مرض السل بادية عليها ، لكن نشاطها لم يقل عن ذى قبل بسبب مرضها " .

لقد التهمت السجون والمنافى القاسية والترحال فى المدن الغريبة صحة نساء الثورة ، ولكن ما أهمية ذلك ما دمن يخدمن قضية الثورة ؟ .

كتبت كروبسكايا فيما بعد : " لقد نشأ نوع من التقارب بيننا جميعا نحن مجموعة كراكوف ، وبين اينيس فى الخريف ، فقد امتازت بسعة صدر محببة وحماسة صادقة ، وفى ذلك الخريف حدثتنى اينيس كثيرا عن حياتها الخاصة وعن أطفالها وطفقت ترينى خطابات الأولاد إليها .. وكانت اينيس عازفة بيانو ماهرة ، بل إنها أقنعت الجميع بضرورة الذهاب للاستماع إلى موسيقى بيتهوفن وأعماله ، وكانت هى نفسها تتقن الكثير من معزوفاته ، وكان لينين يهوى الاستماع بشكل خاص للسيمفونية التاسعة لبيتهوفن المعروفة بسيمفونية البطولة ، وكان يرجو اينيس أن تعزفها له باستمرار .." .

ولم يكن لتلك الفترة المسالمة الهانئة من الحياة فى كراكوف أن تدوم إلى الأبد ، وإلى ما لا نهاية .. وإذن فإن علينا أن نعرف أن مكانة عشيقة الثورة لم تكن شاغرة ، وإنها صارت مشغولة بثبات منذ عام 1909 ، وكانت العشيقة تعمل مع الزوجة من أجل الثورة دون كلل ، وتتجول فى أوروبا كامرأة ثورية لتكتب المقالات المحرضة ، وتعد الرأى العام ، وتكسب الكثيرين ، وفى ذلك المضمار بذلت عشيقة الثورة ما لا يقل عما بذلته زوجة الثورة ، ولكن من المشكوك فيه أن تكون اينيس أرماند قد فكرت فى أن تأخذ على عاتقها مسألة تدبير تفاصيل معيشة لينين ، التى نجحت كروبسكايا بشكل من الأشكال فى تنظيمها بشكل ما ، ليس بفضل مهارتها الشخصية فى هذه القضايا ولكن بمساعدة من والدتها التى اتسمت بالحذاقة كربة بيت . وكانت اينيس علاوة على ذلك تدرك أن بقاءها مع لينين وسط عائلته قد يسفر عن متاعب جمة ، إن لم يكن أمرا مهلكا بالنسبة للثورة الروسية ، لأنه قد يلطخ صورة لينين المجيدة ببقعة على صدريته . وكان من الافضل للينين ، وكروبسكايا ، واينيس ألا يبدلوا شيئا من الأوضاع القائمة التى وائمت الثلاثة .

ولقد أقامت اينيس أرماند فى حياتها المعقدة والعاصفة مثلثين ، هما مثلث الحب ، ومثلث الثورة .. وقد تطرقت للقضية الأولى فى رسالة لها إلى زوجها السابق الكسندر أرماند الذى ظل صديقها الوفى طيلة العمر رغم انفصالهما ، فكتبت تقول له :" لقد ادركت الآن فقط تماما كيف أن الحياة دللتنى وجعلتنى أعتاد على أن أكون محاطة بالأصدقاء المقربين الذين أحبهم و يحبوننى ، أدركت ذلك الان وأنا

أتأمل حياتى الشاقة الحالية التى لا تحتمل ، والتى جعلتنى وحيدة تماما .. مع نفسى " أما مثلث الثورة فانتهى باينيس بخبر مذهل عن وقوع ثورة فبراير 1917 ، والعربة المختومة بالشمع الاحمر التى قطعت الطريق عبر ألمانيا إلى روسيا ، والحشود الهائلة المتراصة فى شوارع مدينة بطرسبرج ، ولينين على متن المدرعة الشهيرة ومن ورائه كروبسكايا التى بدت ضخمة بالمقارنة باينيس أرماند النحيفة الرشيقة التى وقفت إلي جوار كروبسكايا وهى مندلعه بالحماسة والتوقد ، أو كما كتب عنها أحد البلاشفة المعجبين بها " شعلة الثورة المتوقدة " .. لكن الشعل تنطفىء إن عاجلا أو آجلا ، للأسف..

بعد الثورة ، وجد مثلث الثورة : لينين ، كروبسكايا ، اينيس نفسه فى موسكو ، وانتشرت حينئذ الشائعات القوية التى لم تختف حتى الأن ، بأن زعيم الثورة قد قر قراره على الارتباط النهائى باينيس أرماند أخيرا .. بل وانتشرت الشائعات أيضا بأن المكتب السياسى اتخذ موقفا سلبيا من نية لينين وما زال الكثيرون يؤكدون أن كروبسكايا قد قررت هى الأخرى فى تلك الازمة أن تحرر لينين من إسار الرباط الزوجى ، ليقترن باينيس نهائيا ، هذا مع أن هناك وثائق كثيرة تبين أن الاعمال الودية المشتركة بين كروبسكايا واينيس لم تنقطع ، ومنها الاعداد للمؤتمر النسائى العالمى الذى انعقد عام 1920 . وبعد انفضاض ذلك المؤتمر ، شرع أصدقاء اينيس جميعا يقنعونها بحرارة أن تتجه إلى أى مكان للراحة ولو قليلا ، وكان لينين من بينهم ، فكتب إليها يقول : " إذا كنت تضيقين بالمصحات ، فهل لك أن تسافرى إلى الجنوب مثلا ؟ . أو إلى مدينة سيرجو فى القفقاز ؟ .. فكرى فى ذلك . أصافحك بحرارة . المخلص لينين " .

ولكن هل كان ذلك هو كل ما يمكن لحاكم روسيا الجديد أن يضعه تحت قدمى محبوبته حقا إنه لقليل على امرأة كانت جميلة لا تضاهيها امرأة أخرى فى البهاء والروعة حتى أن مزحة انتشرت وسط البلاشفة حينذاك تقول أنه لابد من ادخال اينيس أرماند فى كتاب تدريس المادية الجدلية ، باعتبارها نموذجا " لوحدة الشكل والمضمون " . وعلى أية حال ، فإن اينيس أرماند أصغت لنصيحة لينين ، وشدت رحالها إلى شمال القفقاز الروسى الدافىء لتستريح هناك قليلا من أعباء حياتها المنهكة ، إلا أنها أصيبت هناك بالكوليرا ، وسرعان ما غيب الموت المرأة التى كان كل شىء يختفى فى حضورها إذا هى تكلمت مبتسمة أو متجهمة .

وقد ضم جدار الكرملين رماد اينيس أرماند وسط رماد كبار البلاشفة الاماجد المشهورين ، ووفقا لكافة البروتوكولات لم يكن لرمادها أن يشغل مكانا كهذا ، لكن خرق القاعدة هذا ، كان الشىء الوحيد الذى تمكن زعيم الثورة من القيام به لأجل اينيس .. ربما تعبيرا منه عن امتنانه لها على كل ما كان بينهما ، وعلى كل ما حدث ، وكل ما لم يحدث فى حياتهما المشتركة على هذه الأرض ، وربما كان خرق لينين للقاعدة محاولة منه لطلب الغفران والصفح من اينيس أرماند ، لأنه حرمها من حرية الحب المعلن ، الذى دافعت عنه طيلة حياتها .

وكانت الكسندرا كولونتاى على ثقة من ان وفاة اينيس هى التى عجلت بوفاة لينين الذى كان عاشقا مخلصا لها ، والذى أحس أن الحياة بعد غيابها عن

العالم قد أدارت لقلبه وجهها .. تلك الفتاة الفرنسية التى احتل رمادها مكانته فى جدار الكرملين ، كاستثناء وحيد لم يتكرر ، مثله مثل الحب الذى لم يتكرر أبدا ..

***

ستالين بين ذكرى يكاترينا والموت الغامض لناديجدا..

فى بدايات عام 1918 شرعت الحكومة السوفيتية الجديدة تستعد للانتقال من بطرسبورج إلى مقرها فى موسكو . وتقرر لسبب ما . أن يعيش كبار القادة كلهم معاهم وأفراد عائلاتهم فى الكرملين . ثمة شىء ما فى الكرملين يدير الرؤوس ويشد الجميع إليه .. ربما لأنه كان رمزا للسلطة والحكم طيلة التاريخ الروسى ؟ ..

ولا يسعنى أن أقطع بشىء ما ، ولكنى أرجح أن القصة بدأت على هذا النحو : لابد لستالين الأرمل أن يتزوج ، لابد أن يدخل إلى الكرملين مع رفيقة حياة و الا أصبح الاستثناء الوحيد وسط القادة ، لابد أن تقف إلى جانب كل زعيم صديقة وزوجة ، حليفة أمينة ، حتى لو لم يسجل الزواج على الأوراق الرسمية ، أو لم يتم وفقا للطقوس الدينية . فالى جانب لينين وقفت ناديجيدا كروبسكايا ، وإلى جانب ليف كامينييف وقفت أولجا ، وبالقرب من ليف تروتسكى وقفت ناتاليا ومع كليمنتى فوروشيلوف كانت تظهر دائما يكاترينا .. إلا ستالين الذى كان وحيدا مثل البومة العمياء ، لا تحيطه عناية أو رعاية .. وكان نصيبه من عالم المحبة هو ذكرى زوجته الأولى يكاترينا شفانيدذة التى كانت تفد إلى ستالين واهية دافئة من عمق السنوات البعيدة وكانت يكاترينا فتاة جيورجية ريفية من وطن ستالين ، لكن الأرستقراطية الفطرية التى تتسم بها غالبية الجيورجيات كانت مطبوعة بوضوح على قسمات وجهها وهندامها وحركاتها . والزوجة الجيورجية كانت دائما رمزا للوفاء والصبر والتواضع والطاعة معا ، وكانت التقاليد العريقة تسوقها للانصراف إلى خدمة زوجها وتلبية حاجاته، وتربية أطفالها ، والانهماك فى شئون البيت . وقد عاشت يكاترينا مع ستالين حسبما اقتضت التقاليد وجرت العادات فى جيورجيا ، تنتظر زوجها إذا تأخر ، وتعجل بتقديم الشاى إليه . وكانت مقابل ذلك تنال كل ما تناله المرأة التى لا تدعى السعادة : الوحدة فى أغلب الاحيان ، والهواجس المؤلمة ، والأفراح القليلة التى لابد منها لاستمرار الحياة . وكانت يكاترينا تؤمن بالله من كل قلبها ، ويمكن القول أن تقواها تلك ، وايمانها ، لم يزعجا ستالين كثيرا ، فقد كان هو نفسه ربيبا لاحد المدارس الدينية ولم يتركها الا مؤخرا ، ورغم أنه لم يأسف لذلك ، الا إنه لم يصبح عدوا حقيقيا للأديان إلا فيما بعد عندما وصل إلى قمة الحكم . ويقال أن والدة ستالين هى التى فتشت حتى عثرت له على يكاترينا ، فقدمتها إليه ونصحته بها . لكن ذلك فرض من عدة افتراضات لكيفية تعارف ستالين على زوجته الأولى ، وتنشطر صورة يكاترينا وتتوزع إلى صورتين وربما ثلاث صور : فهى إما ربة منزل هادئة لا تتميز عن سواها ، وإما خياطة ملابس ماهرة كانت تحوك الملابس لنساء عليه القوم ومن بينهم زوجة والى تبليسى

عاصمة جيورجيا ، وإما إنها كانت تقدم العون لزوجها فى نشاطه فتقوم بتوزيع صحيفة " ايسكرا " الشيوعية سرا ، ويقال أنها سجنت فترة قصيرة من جراء نشاطها ذلك . وربما أن يكاترينا جمعت كل أولئك دفعة واحدة ؟ فكانت ربة بيت جيدة وخياطة ماهرة وثورية فى نفس الوقت ؟.. على أية حال ؟ هناك عدة سطور تركها صديق طفولة ستالين وهو جوزيف أريماشفليلى تحدد لنا من شخص قريب كهذا طبيعة علاقة يكاترينا بستالين ، ففى رسالة له كتب جوزيف عنها : " كانت يكاترينا تنظر إلى زوجها نظرتها إلى شبه إله " . وعندما توفت يكاترينا فى أعقاب مرض حاد ، تركت ابنا صغيرا لها من ستالين هو ياكوف ، وكان ذلك عام 1909 ، نفس السنة التى تعرف فيها لينين إلى اينيس أرماند ..

" ناديا .. ناديجدا .. نادينكا .. " كلها كلمات تدليل لاسم ناديجدا اليلوينا ، ابنه سيرجى اليلويف الثورى ، وأحد أصدقاء ستالين منذ عهد بعيد . " أن الزواج منها فكرة لا بأس بها " ، هكذا سرح ستالين بذلك الخاطر : ولم لا؟ ألم تجعلها الأقدار من نصيبه حين أنقذها ذات يوم وهى طفلة صغيرة تلهو عند السور الحجرى للنهر فى باو ؟ حينذاك هوت ناديا إلى المياه وكان هو واقفا بالقرب منها ، فسارع باختطافها من الماء بحركة كالبرق .. هل كان يختطفها حينذاك لنفسه ؟ هل وهبته الأقدار إياها فى ذلك اليوم ؟ .. إن ناديا فتاة لطيفة وذكية ، كما أنها شابة جميلة ، وهى فوق كل ذلك ابنة صديقه البلشفى المخلص سيرجى ، كما أنها ليست من ذلك النوع المدلل من الفتيات ، ولم يمسها أحد من قبل ، وهى خلافا للكثيرات ممن كن يدرن فى محيط ستالين لم تمر بتجربة السجون القيصرية القذرة التى تسم من يجتازونها بنوع من القسوة

نعم .. إنها هى ناديا الطاهرة البريئة التى تشبه زهور الأساطير اليونانية ، إنها امرأة جديرة بالكرملين ، وجديرة بستالين ، حقا إنها ما زالت صغيرة السن ، لكنها ستنمو ، وتكبر وتتعلم الكثير خلال ذلك . لكن أين وكيف جرى ذلك ؟

فى مارس 1918 أنهت ناديا المدرسة الثانوية وجاءت إلى موسكو ، ويبدو أنها لم تتأسف كثيرا على ما تركته وراءها ، فقد مكنتها العلاقة الشخصية بين والدها و ستالين من العمل فى موسكو تحت اشراف ستالين المباشر ، وأمست من اليوم الأول مساعدة له . وكانت ناديا قد أتمت لتوها السبعة عشر ربيعا ، بينما كان ستالين فى التاسعة و الثلاثين ، نعم إن اثنين وعشرين عاما فرق كبير ، وعامة فإن القانون الذى وضعه ستالين نفسه فيما بعد كان يحظر مثل هذه الزيجات ، على أساس أن الزوجة مازالت قاصرا . ولكن اصدار القوانين لم يكن من صلاحيات ستالين بعد ، ولعله كان ينظر إلى زواجه باعتباره حالة خاصة به لها أسبابها ، وفى تفسير تلك الأسباب تقول ـ شقيقة ناديا ـ أنا اليلويفا ، بعد خروجها من معسكرات الاعتقال الستالينية ، وكان ذلك فى رحلة رافقا فيها ستالين بالقطار إلى مدينة " تساريتس " التى سميت فيما بعد ستالينجراد على اسم ستالين وهو حى ، ولم تكن ناديا ترافق ستالين كزوجة له ، ولكن بصفتها أحدى العاملات الموثوق بهن ، وكان الجميع فى عربة واحدة فى تلك الرحلة الطويلة التى كانت تستغرق أياما حينذاك . وفوجىء سيرجى والد ناديا ذات ليلة بسماعه صراخ ابنته ، فاندفع

إلى مقصورتها التى كانت تنام فيها ، وقبل دخوله اليها خرجت ناديا لملاقاته وهى تنتحب وكلماتها تتدافع مع دموعها مختنقة بالبكاء : لقد اغتصبنى . واندفع الوالد إلى داخل المقصورة فى ثورة عارمة ليطلق الرصاص على ستالين ، إلا أن الاخير طلب منه الزواج من ابنته . ربما يكون هذا هو السبب فى تلك الزيجة ، وربما أن أنا اليلويفا التى عانت من المعتقلات الستالينية أرادت أن تلوث صورة زوج أختها ستالين الذى أمر باعتقالها وعامة فإن مختلف الأقاصيص كانت تروج حول ستالين الذى كان يستعصى على الفهم كشخصية تاريخية . وهناك رواية أخرى ترويها سفيتلانا ابنة ستالين فى كتابها الذى نشرته بعنوان " عام واحد فقط " وتقول فيه : " كانت جدتى أولجا تقف من ستالين موقفا وديا جدا ، ولكن زواج ابنتها منه لم يكن من دواعى سرورها على الاطلاق ، وقد حاولت مرات عديدة أن تثنى أمى عن تلك الزيجة ، وعندما كانت تيأس منها كانت تسبها بقولها لها : أنت مجرد شابة حمقاء ، ولم يسعها أبدا أن تتقبل تلك الزيجة أو توافق عليها ، وفيما بعد عندما علمت جدتى بانتحار أمى ، بكت وقالت أن ذلك نتيجة لكل تلك الحماقة " . إذن فقد حاولت الأم ثنى ابنتها عن الزواج من ستالين .. وحاولت ثنيها .. ؟ ألا يعنى ذلك أن ناديا كانت مقبلة على هذا الارتباط بذلك الرجل ؟ وكانت تسعى إليه بملء ارادتها وأيا كانت الدوافع فقد تم عقد قران ستالين على ناديا رسميا ، وبعد خمسة أشهر فقط أنجبت ناديا ابنها الأول الذى اطلقت عليه اسم " فاسيلى " ، بعد خمسة شهور فقط ، الأمر الذى يعيد للذهن رواية أختها أنا عن حادثة القطار التى وقعت فى الليل . وفى ظل الابتهاج العام والنشوة بانتصار الثورة ، كان المحيطون بستالين ينظرون إلى زواجه من ناديا اليلويفا بإعجاب ويباركون ، وكان كل شىء يجرى كأنما داخل أسرة واحدة كبيرة متألفة صنعتها الثورة هى أسرة البلاشفة التى أسعدتها سعادة أحد أفرادها .

لعل مدينة " تساريتس " قد أصبحت محطة هامة فى حياة ناديا الشابة الصغيرة التى أمست زوجة لرجل قدر له أن يصبح طاغية قلما عرف الزمان له مثيلا . فقد وصلت ناديا إلى تلك المدينة فى يونيه عام 1918 برفقة ستالين ، وسط حراسة تألفت من أربعمائة جندى من الحرس الأحمر ، وكان ستالين يتمتع بصلاحيات استثنائية من مجلس مفوضى الشعب لتأمين الأغذية والضرب بيد من حديد على يد المضاربين بالخبز والسلع التى كانت شحيحة أصلا . ووجدت ناديا نفسها فى مدينة يجرى تحويلها على مرأى منها إلى معسكر كبير بسرعة شديدة . ولازمت ناديا الانطباعات الاولى المرعبة : دوريات الجيش الأحمر التى تطوف بالشوارع طيلة الوقت ، وترابط عند تقاطع الطرق ، وبنادقها مشحونة ومستعدة . وكانت السجون تغص بالمعتقلين من كل صنف ، وكان الناس يتفوهون باسم ستالين سرا بخوف ورعب ، كأنهم بنطقهم لاسمه يستثيرون روحا شيطانية شريرة . ولطخت دماء الواقع شهور العسل الاولى لتلميذة المدرسة الثانوية التى لم تكمل تعليمها . ولم يكن لناديا أن ترى من حولها الا قيظ الصيف وطلقات البنادق والذعر ، والموت . ما ذنبها فى كل ذلك ؟ حقا أنها رضعت حليب البلاشفة من أمها أولجا ، لكن البلشفية التى تعلمتها بهدوء وسط جدران بيتها شىء ، وما رأته هنا من واقع

قاسى صيف 1918 شىء آخر تماما ، لا يمت بصلة أو بشبه لما تلقنته من أفكار . وكان الجميع يرددون من حولها أن ما يجرى هو الصراع الذى لا مفر منه دفاعا عن قضية الطبقة العاملة . وكانت تصدق ما يقال من حولها وإلا فكيف يمكنها أن تواصل تلك الحياة إذا هى لم تصدق ما يقال لها ؟ .

ترى هل كانت ناديا الصغيرة عاشقة متيمة تهتم بجوزيف جوجا شفيلى الذى تخير لنفسه اسماً اخر مشتقا من كلمة الصلب هو ستالين ؟ . وبالقطع تحبه ، وهو يحبها ، إنها زوجته فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ .. ولو استوقف أحدهم ناديا حينذاك وسألها : هل تحبين هذا الرجل ، المتجهم الكئيب ، والغريب الاطوار الذى تجاوز سن الشباب ؟ لو سألها أحد حينذاك هذا السؤال لما فهمت ناديا ما المقصود منه ، فهى تحب ستالين الثورى ، المناضل ، القائد . هل أنه من الصعوبة تصور ذلك ؟ .. على العكس فهذه حالة ليست نادرة الحدوث .

بعد عودة ناديا اليولوفا من شهور العسل ، صارت تعمل سكرتيرة خاصة لدى لينين واتضح أنها عاملة رائعة ، كفء ، ومثابرة لا تعرف الكلل ، حتى أن لينين أخذ يأتمنها على المواد البالغة السرية . زوجة ستالين سكرتيرة للينين ؟ إنه موقعها هذا يناسب ستالين تماما ، إنه ممتاز بالنسبة له ، فسيكون على علم بخفايا خطط لينين وأفكاره.. دائما ، وهى مسألة هامة بالنسبة لرجل وضع عينه على أن يستلم الحكم . لكن ستالين يصطدم بأن زوجته الشابة لا تدلى إليه بالمعلومات السرية عما يجرى خلال عملها مع لينين ، واكتشف ستالين شيئا جديدا فى زوجته : إنها قوية العزيمة ، وأعجبه ذلك فى أول الأمر ، لكن هناك حالات تكون فيها معرفة ما يحدث أمرا ضروريا للغاية بالنسبة لستالين ، لكن ناديا تلزم الصمت حتى فى تلك الحالات القصوى .

ووجدت ناديا نفسها ـ وهى التى لايزيد عمرها عن الثانية والعشرين عاما ـ فى خضم الصراع بين أهم رجلين فى الثورة : لينين ، وستالين . ومكنتها ظروفها كزوجة من أن تعرف عن ستالين ما لا يعرفه أحد : عندما يشرب يثمل وينتشى فإن موضوع الحديث المحبب لنفسه معها هو مسألة السلطة : قريبا ، بل قريبا جدا سيصبح الحكم بكامله بين يديه هو . ولا تسر ناديا من هذه الاحاديث المستفيضة التى يستمتع بها ستالين ، وتبدو لها من زاوية ما منافية لمبادىء العدالة والثورة .. وكانت " ناديا " " من أوائل الذين عرفوا بوصية لينين الأخيرة التى وصف فيها زوجها بالدقة والقسوة والحذر من أن ينفرد بالحكم ، وقال أنه " فظ فى معاملته للاخرين " وأن طباعه الشخصية تلك قد تنقلب فى ظروف محددة إلى عامل حاسم فى مسيرة الشعب والدولة . وتضطر ناديا للاعتراف فى قريرة نفسها بأن لينين على حق : نعم إن ستالين فظ وحاد ، وغير منصف فى أغلب الأحيان ، وهو ما تلمسه ليس فى علاقته بالاخرين فحسب ، بل حتى فى علاقته بها هى ويحس ستالين بفتور زوجته نحوه ، ويصيبه ذلك بخيبة أمل عميقة فيها ويسأل نفسه : ترى ألم يكن من الافضل له أن يقترن بفتاة قروية بسيطة من أحدى القرى الجيورجية تنظر إليه نظرتها إلى " شبه إله " ، وتعاوده ذكرى يكاترين زوجته الأولى ، ويقارن بينها وبين ناديا العصبية المتوترة ، والتى وقعت عدة مرات نهبا

لنوبات هستيرية حادة .. ربما تكون ناديا قد ورثت ذلك عن أمها " أولجا " التى كانت تعانى من مرض الشيزوفرينيا ؟ ..

بعد وفاة لينين ، انتقلت ناديا اليلويفا سكرتيرته السابقة للعمل فى مجلة " الثورة والثقافة ولم يكن لديها مؤهلات علمية إلا ماانهته من فصول ستة فى المدرسة الثانوية ، وخبرة عملها كسكرتيرة فى مكتب لينين .. ومع ذلك كانت ناديا تستوعب خبرات العمل الصحفى الثقافى بنجاح لا بأس به . وكانت مستعدة للقيام بأى شيء ، والانغماس فى عمل ، شرط ألا تقعد بين جدران الكرملين مع طفليها ، وشرط ألا تشارك فى الولائم الليلية التى يقيمها زوجها الذى صار حاكما لاحدى أضخم الامبراطوريات . إن المشاركة فى تلك الولائم والجلوس إلى المنضدة مع كبار القوم أمر يحتاج إلى صبر هائل ، ويحتاج أيضا من الإنسان أن يكون قادرا إلى حد ما على مجاراتهم فى الشرب و الأكل ومواصلة الأحاديث ، وناديا لا تطيق كل ذلك ، ببساطة لا تطيق تلك الموائد ، ولنقل أن هذا طبعها .. فما العمل ؟ أما ستالين فمولع بتلك الأبهة التى يخطر فيها مثل القياصرة ، بينما يتتبعه الاخرون بعيونهم بخوف .. لابد لأحدهما أن يتنازل للاخر ، لتمضى الحياة ، لكن ستالين لا يتنازل بطبيعة الحال ، وتقدم هى التنازلات ، واحدا بعد الاخر ، حتى ينفذ صبرها ، فتنفجر من وقت لاخر هاربة مع طفليها إلى والدتها أولجا . ويسوق ستالين الوسطاء عليها لترجع إلى الكرملين ، فهذا أمر مخجل .. ما الذى سيقوله الناس .. زوجة ستالين هجرته ؟ فرت منه إلى بيت أمها؟؟ غير معقول .

نوفمبر عام 1927 ، يا له من خريف ثقيل متجهم حط بسمائه الرمادية الرصاصية على قلب ناديا . وقد كان نوفمبر دائما فى حياتها شهرا من الشهور الصعبة . لماذا ؟ لا تدرى .. وكانت الحياة من حولها تتدفق ببطء لكنها لا تسر ولا تبعث البهجة فى النفوس . وفى نوفمبر كانت تدور المعركة الأخيرة الحاسمة بين ستالين ومعارضيه فى الحزب وفى مقدمتهم ليف تروتسكى ، وكان ستالين يقصى كبار الشخصيات المعارضة من الحزب واحدا بعد الأخر ، ومن بينهم رفاق الثورة الاوائل وزملاء لينين ، ومن بينهم من كانت ناديا تعرفهم معرفة شخصية وتثق فيهم ، بل وتكن لهم المودة .. فما الذى جرى ؟ ما الذى يجرى ؟ إنها لا تفهم ما يدور حولها . إنها لا تفهم .. لكن هل حقا أنها لم تكن تدرك ما يجرى ؟ . كلا .. كانت ناديا تعرف كل شيء . فى نوفمبر عام سبعة وعشرين انتحر الدبلوماسى المعروف " يوفى " ، وكان الجميع يعرفون أنه من أنصار تروتسكى ، وهو الذى وقع معه صلح بريست فى بدايات الثورة . ويودع حشود الأصدقاء جثمان " يوفى " ، وذهبت ناديا هى الأخرى . كانت تعلم أن ستالين قد انتصر انتصارا نهائيا ، وأن السلطة قد دانت له ، وأنه أخضع الجميع بالنفى والقتل والاغتيال .. ولم يسرها ذلك النصر .. لماذا لا يسعها أن تقف إلى جانب ستالين وهو زوجها ؟ هل لأنها كانت تجرى وراء الحقيقة ؟ . وهل كانت تلك الحقيقة لدى الاخرين الذين انتصر عليهم ستالين ؟ كلا هل أنها ببساطة مصابة بالشيزوفرينيا كما صرخ ستالين فى وجهها أكثر من مرة خلال الشجارات التى نشبت بينهما مؤخرا ؟ .. أم أنه هو المصاب بالبرانويا كما صرخت هى فى وجهه ترد عليه بنفس الحدة ، وتتهمه بأنه يرى

العالم كله أعداء له ؟ وإذا لم يكن زوجها مريضا بالفعل ، فلماذا لزم الصمت حينما صرخت بذلك أمامه ؟ .

تركت ناديا عملها فى مجلة " الثورة والثقافة " ، وانتسبت لكى تواصل دراستها فى الأكادمية الصناعية ، وقررت أن تصبح اخصائية فى الألياف الكميائية . وتشعر ناديا بعمق وهى مقبلة على الدراسة الجديدة أن كل شىء ممتع خارج أسوار الكرملين ، وأنها إلى حد ما حرة وطليقة ، وتبدو حتى صعوبات الدراسة هينة ، وتتجنب ناديا أن تبرز نفسها فى الأكادمية ، أو تحيط وجودها بأهمية خاصة كزوجة لستالين ، إن الجميع يعرفون ذلك من تلقاء أنفسهم ، وهم يعاملونها بحرص خاص ، ولكن من هى فى حقيقة الأمر ؟ من هى بحد ذاتها ؟ كانت ناديا ممزقة بين حقيقتها هى ، وحقيقة ستالين ، والوحدة التى جمعتها به خلال الزواج والاطفال ، وكانت فى تمزقها ذلك تنأى عن ستالين شيئا فشيئا ، وتبعد عنه تجاه خصومه بعقلها أولا .. ثم بقلبها أيضا .

حلت الذكرى الخامسة عشرة للثورة ، السابع من نوفمبر عام 1932 ، وياله من عيد تقام له الاحتفالات الكبرى فى موسكو وغيرها . وفى اليوم التالى أقام الكرملين حفل استقبال رسمى للضيوف ، انتهى بالنسبة للمجموعة الضيقة من الكبار بسهرة مسائية فى شقة كليمينتى فوروشيلوف الذى أصبح مارشالا للاتحاد السوفيتى بعد ثلاث سنوات . ولم يعد ستالين وناديا معا من تلك السهرة ، وعادت هى للكرملين قبله ، بينما رجع هو فى وقت متأخرا جدا .

وصباح اليوم التالى ، عندما اتجهت الوصيفة إلى غرفة نوم ناديا مبكرا لتقوم بإيقاظها كالعادة ، فوجئت بأن ناديا اليلويفا التى لم تتجاوز عامها الواحد والثلاثين ، ملقاة على الأرض قرب سريرها ، غارقة فى بركة من الدماء . وكان بجوارها مسدس صغير من طراز " فالتر " أهداه إياها أخوها بافل بعد سفرة له خارج الاتحاد السوفيتى . هذا ما رواه جميع شهود العيان فيما بعد ، ومن بينهم سفيتلانا ابنة ناديا وستالين ..

ويا له من انتحار مستغرب وغريب فى نوفمبر ، بعد عيد الثورة بيوم واحد . ومع انقضاء الزمن ، والابتعاد عن تلك السنوات، تصبح عقدة التناقضات التى قادت ناديا لنهايتها المأساوية أكثر تشابكا واستعصاء على الفهم ، وتتزايد الخيوط التى صنعت تلك العقدة التى غرقت فى بركة من الدماء . وعلى الرغم من أن الوقائع التى تبدو غير قابلة للطعن أو الشكوك فإن تلك الوقائع نفسها تغتنى بالظنون والشائعات والخرافات التى لا تنتهى .

ويقول نيكيتا خروتشوف الذى كان زميلا لناديا بلجنة الحزب بموسكو ، ولم يكن مقبولا بعد فى دهاليز السلطة العليا : " لقد كنت أحس بالاحترام العميق تجاه ناديا اليلويفا .. وقد ماتت فى ظروف غامضة مبهمة ، ومهما قيل فى أسباب موتها ، فإن ستالين قد شارك فيه بتصرفاته الشخصية ، بل إن الشائعات ملأت المدينة بأن ستالين هو الذى قتلها رميا بالرصاص . وطبقا لرواية أخرى - تبدو لى أقرب للحقيقة نسبيا - فإنها انتحرت بسبب اهانة بالغة لحقت بكرامتها وعزة نفسها كأمرأة .. " .

وإذا لم تكن يد ستالين هى التى أطلقت الرصاص ، وإذا كانت ناديا الممزقة نفسيا هى التى انتحرت ، فإن قصة غريبة ترد هنا كتفسير لذلك الانتحار ، روتها لى امرأة بلشفية طاعنة فى السن فى اواسط الخمسينات حينما كنت أنا شابة صغيرة بعد . وهى قصة غريبة حتى أنها ما زالت تستثير فى نفسى شعورا بالخجل بعد مرور تلك السنوات كلها .. ووفقا لها فإن ناديا قبل عيد الثورة المذكور بحوالى أسبوع تقريبا قالت لصديقة لها : " إن شيئا رهيبا سيقع لى عما قريب ، لأننى ملعونة منذ ولادتى ، ملعونة إلى آخر أيام حياتى ، لأننى زوجة ستالين .. وابنته فى نفس الوقت " . وعلى حد زعمها فإن ستالين نفسه هو الذى قال لها ذلك فى لحظة شجار عنيفة بينهما . وقد سارعت ناديا بعد ذلك كالمجنونة فاتصلت بوالدتها أولجا التى اعترفت لها بأنها كانت فى شبابها على علاقة بزوجها سيرجى ، وبستالين فى نفس الوقت . وبكت قائلة لها : " وصراحة فإننى لاأعرف ابنة من أنت ، لكنك تشبهين كل الشبه سيرجى اليلويف ، والدك الشرعى ، ولذلك فالأرجح أنك ابنته " .

ومع ذلك سيطرت على ناديا تلك الفكرة المرعبة أنها ابنة ستالين وبالتالى فهى شقيقة ابنها فاسيلى وابنتها سفيتلانا . إنها قصة جهنمية أقرب للهذيان .. وكم أود أن أعتقد أنها محض خيال وافتراء .

على أية حال ، فإن ناديا التى غرق سر موتها مع دمائها قرب سريرها فى الكرملين ، تركت رسالة صغيرة لستالين .. لم يعرف أحد ما الذى كتبته فيها سواه هو .. وعندما أحرق ستالين تلك الورقة الصغيرة ، أكلت ألسنة اللهب كلمة الحقيقة الاخيرة من قصة ناديا وستالين ، الزعيم الذى انتحر من حوله الكثيرون فى ظروف غامضة ، مبهمة ، بينما واصل هو الصعود إلى أعلى .

***

نينا بيريا سحابة بعطر المشمش ..
زوجة للسفاح بيريا

يجمع كل من عرفوا نينا بيريا ـ زوجة لافرنيتى بيريا وزير داخلية ستالين ـ فى تلك السنوات على إنها امرأة جيدة ، وطيبة القلب للغاية ، وأنها أيضا أغلب الظن امرأة سيئة الحظ . ويتذكرها زملاؤها الذين عملوا معها فى الاكاديمية الزراعية بالخير ، وبكلمات كثيرة طيبة . فقد استقبل بيريا ـ بعد رجاء منها ـ معلمها الأكاديمى بريانيشنيكوف ـ وبشكل من الأشكال خفف الحزب والحكومة بعد ذلك من ثقل الضربات التى وجهوها لعلم الزراعة . ولم يكن بوسع نينا الطيبة أن تفعل الكثير لترفع عن كاهل الاكاديمية الضربات المتتالية ، عملا بالقاعدة المتبعة فى الكرملين والخاصة بالزوجات : لا تتدخلى فيما لا يعنيك خاصة إذا لم يطلب أحد منك ذلك .

قال لى بعضهم : ربما تكون نينا بيريا ما زالت حية حتى الان . وأكد البعض الاخر : بل إنها على قيد الحياة بالفعل ، ويمكنك زيارتها ، وتوجيه ما شئت من أسئلة إليها ، إذا هى لم ترفض الحديث اليك بالطبع . ولكنى لم أستشعر رغبة فى البحث عنها ، والتوجه إليها .. ولكن لماذا ؟ هل أنى أخشى ذلك اللقاء ؟ هل أنى خائفة ؟ . من المضحك القول بأنى خائفة ، كلا إننى لا أهاب ذلك ظل الأسود المشئوم لزوجها ، ولكنى أخشى الوقوع فى محبة الذكريات القديمة ..

كان الحصول على بطاقة خاصة للتردد على المسارح أحدى الامتيازات التى يتمتع بها والدى ، وقد مكننى ذلك من الاستمتاع بأوبرا " إيفان سوسانين " ، وباليه بحيرة البجع ، كما شاهدت جالينا أولانوفا في باليه " جيزيل " ، كنت فى تلك السنوات أنظم الشعر ، وأحلم بأن أكون ممثلة معروفة ، وشغلتنى حينذاك مراقبة النساء والفتيات الاخريات الأكبر سنا منى ، كيف يمشين ، وكيف يتكلمن ، ويبتسمن ، وأية ملابس يرتدين . وذات يوم ، وكنت فى البولشوى تياتر فخرجت فى فترة الاستراحة مع أحدى صديقاتى إلى ردهات البولشوى ، وكنت أتطلع إلى وجوه العابرين أمامى من الجمهور ، حين لمحت فجأة وجه امرأة وسيمة ، وسامة لا تمت بشىء لما نعرفه من جمال دنيوى ، وكانت تمضى فى الردهة بسرعة محاطة بحلقة من العسكريين ، وهى تبتسم ابتسامة مترددة بين الحياء والارتباك وكانت خلال ذلك تتهادى برقة مثل سحابة هوائية بلون المشمش وعطره . وكان شعرها الذهبى ينسدل على كتفيها فيحيطها بهالة ، تتموج من رقة المرأة نفسها وما يبدو على ملامحها من طيبة .

إنها نينا بيريا ..

ومن أعماق اللاوعى اندفعت إلى عقلى الحكاية الرهيبة عن ذى اللحية الزرقاء ، قاتل الزوجات .. أيعقل هذا ؟ . ما أكثر ما يردده الناس من حكايات لا تمت للواقع بصلة . وكيف يمكن النظر إلى بنات الناس عندما تكون للإنسان زوجة بمثل هذا الجمال والسحر ؟ .. بل والمضى أبعد من ذلك إلى حد اختطاف الأخريات ؟ . امرأة من سحابة مشمشية.. من أنت؟ ومن كنت؟ ضحية أم شريكة فى الجريمة ؟ ..

فيما بعد أخذت يكاترينا ـ أرملة المارشال كاتوكوف ـ تتذكر صورا من الأيام الخوالى ، قائلة : " كان لنينا بيريا شعر ذهبى ضارب إلى اللون النحاسى ، وعينان بندقيتا اللون ، وأهداب طويلة ملتوية عند نهاياتها مثل أهداب الدمية ، وبشرة صافية رائعة ، وقوام بديع ، وكانت تخفى التقوس الخفيف فى ساقيها بمشية حاذقة . " ويكاترينا زوجة المارشال كاتوكوف امرأة ذكية يقظة العقل ، كانت ترقب كل ما يدور حولها ، وترصد بوعى ما يحدث محتفظة لنفسها بانطباعاتها الحقيقية ، وهو درس تعلمته بثمن باهظ ، فقد كانت فى الثلاثينات زوجة لاليكسى ليبيديف الذى كان يعمل فى الكرملين ثم اعتقل وأعدم . أما يكاترينا نفسها فقد قضت هى الأخرى سنتين فى السجن لمجرد اعتقال زوجها . وفيما بعد عندما تزوجت من المارشال كاتوكوف ، فإنها قطعت معه طريقا طويلا من موسكو إلى برلين ، وكانت جزءا لا يتجزأ من مجتمع الكرملين والقمة الحاكمة . وتحكى يكاترينا فتقول : " كانت نينا بيريا لاعبة تنس ممتازة وكانت تفضل اللعب معى ، وأحيانا كانت تمارس هوايتها تلك مع الحراس المخصوصين ، ولكن لم يكن مسموحا لها باللعب مع الغرباء .. وبعد التنس كنت أركض لشرب الماء ، أما نينا فكانت تتجه ـ لكى تروى عطشها ـ فقط إلى السيارة التى تصحبها ، وهناك تحتسى الماء من زجاجات جاهزة ، لأن بيريا لم يكن يسمح لها بالسير وسط الناس .. كان ذلك فى أحد المدن الألمانية حيث تعرفت إليها هناك .. وكانت نينا تعتنى بمظهرها الخارجى ، وكان لدى نوع من كريم الوجه أعطتنى وصفته مدام بينيش زوجة الزعيم التشيكوسلوفاكى، فرأته نينا واهتمت بمعرفة الوصفة فقاسمتها ما كان لدى منه ، ثم نسيت ذلك تماما فيما بعد . وكنت خلال فترة اقامتى فى برلين أضطر لمساعدة زوجات أعضاء الحكومة اللواتى يزرن برلين ، فكنت أطوف بهن المحلات ليشترين أطقم أوانى السفرة ، والملابس الفرو ، والقبعات ، وغير ذلك ولكنى لم أتلق أبدا كلمة شكر واحدة من أى من اولئك النساء ، لا من نينا بيتروفنا زوجة خروتشوف ، لا من يولينا زوجة مولوتوف ، ولا من الاخريات . ولكن فوجئت بعد عودتى لموسكو بتليفون من نينا بيريا ، تشكرنى على الكريم ، وعلى اهتمامى بها ، وتدعونى لزيارتها فى منزلها الصيفى . وقمت بزيارتها ، وكان بيتها الصيفى يقع فى بارفيخا بضواحى موسكو . وعندما وصلت إلى هناك كانت نينا تتنزه راكبة دراجة فى إطار مربع حدده لها بيريا يتشكل من عسكرى أمامها ، وآخر خلفها ، كأنها فى قفص . وكانت نينا ترتدى دوما أجمل الملابس ، وكان أحد فساتينها ـ ما زلت أذكره ـ جميلا جمالا خارقا ، حاكوه لها خصيصا من خمسة وعشرين مترا من قماش الشف . ولم تكن تزين جيدها بالالماسات والمجوهرات ، فلم يكن أحد يزين نفسه بهذه المجوهرات عموما حينذاك . ولا أدرى لماذا قفز إلى رأسى ـ حين شاهدت نينا تتنزه بين العساكر ـ

حوار قديم دار بيننا فى المانيا بمدينة " درزدين " ، حينذاك قالت لى نينا : " إننى أنظر إليك وإلى زوجك ميخائيل ، وأحس أننى أمتع عينى بالحب الذى يكنه لك زوجك " . وسألتها : " وأنت .. ألا يحبك زوجك بيريا ؟ " . فقالت بصوت من عالم آخر : " إننى مسكينة جدا ، إن لافرينتى بيريا لا يتواجد فى البيت أبدا ، وأنا وحيدة دوما ، طيلة الوقت " .

عام 1972 صدر فى لندن كتاب " القوميسار" (المفوض) ، تأليف تاديوس ويتلين عن حياة لافرينتى بيريا وسيرته . وها أنا اليوم أتصفح ذلك الكتاب بنهم - ليس لكى أعرف بجرائم بيريا المرعبة - ولكن لعلنى أجد شيئا ما عن نينا زوجة بيريا ، أو علاقاته النسائية . يقول تاديوس ويتلين فى كتابه ذلك : " عندما كان بيريا فى أبخازيا بجيورجيا فى بدايات العشرينات ، كان يقيم فى قطار خاص فاخر يقف فى أحد الخطوط الاحتياطية بمحطة سوخومى وفى ذلك المساء كان بيريا يستعد للسفر إلى تبليسى حين دنت منه فتاة شابة فى ربيعها السادس عشر تقريبا ، وراحت ترجوه لكى يتشفع لدى المسئولين للافراج عن شقيقها المعتقل . ولاحظ بيريا على الفور الجمال الأخاذ لتلك الفتاة ، فدعاها للقطار بزعم أنه يريد أن يحصل على مزيد من التفاصيل المتعلقة بشقيقها .. وأبقاها طيلة تلك الليلة . لقد أدرك بيريا الشهوانى أنه من الحماقة أن يضيع على نفسه فرصة كهذه ، جاءت إليه بقدميها . وهكذا أصبحت نينا الصغيرة زوجته . ومازلت اذكر انطباعى الأول عن تلك القصة بعد أن قرأتها ، لقد رفضت تصديقها تماما ، ليس لأن أوهاما راودتنى بشأن بيريا ، وامكانية أن يقدم على مثل هذا السلوك ، كلا .. فقد كنت أعلم تمام العلم أنه سادى وشرير ، ولكن نينا هى التى حثتنى على رفض تلك القصة ، فهل يعقل أن تتقبل مثل هذه المرأة الأبية الحسناء تلك الاهانة لمجرد التشفع لأخيها المعتقل ؟ .. ربما أن ويتلين لا يكذب ولكنه يفترض فقط ما الذى .. يمكن لبيريا أن يفعله فى هذه الحالات ..

وفى فترة عكوفى على كتاب " نساء الكرملين " ، وقعت معجزة من المعجزات التى أخذت أعتاد وقوعها فى السنوات الأخيرة فى مجرى تأليفى لهذا العمل، فقد نشرت جريدة سفرشينا سيكرتنو " (سرى للغاية) حوارا كبيرا أجراه الصحفى الجيورجى تيموراز كوريدذة مع نينا بيريا مباشرة . وفى هذا الحوار تكلمت نينا نفسها فقالت على صفحات تلك الجريدة عام 1990 - وكانت قد بلغت الستة وثمانين عاما أنها تعيش فى مدينة كييف عاصمة أوكرانيا فى شقة صغيرة من ثلاث غرف ، وتلازم البيت طيلة الوقت ، لا تكاد تغادره إلا للضرورة القصوى . وقالت : " لقد ولدت فى أسرة بسيطة فقيرة ، ولم يكن لدينا ما يميزنا عن الأخرين ، وزادت علينا مشقة الحياة خاصة بعد وفاة والدى ، وكانت العائلات الغنية الثرية فى جيورجيا تعد على أصابع اليد الواحدة فى تلك السنوات ، وكانت تلك سنوات عصيبة ، تعصف فيها الاضطرابات بكل شيء ، ويلفها القلق : الثورات ، الاحزاب السياسية ، والهزات الاجتماعية . وفى تلك الظروف نشأت فى بيت أحد أقربائى وهو الكسندر جيجتشكورى الذى أخذنى إليه بعد وفاة والدى ليخفف الحمل بذلك عن والدتى التى ربت أخوتى الاخرين . حينذاك كنا نعيش فى مدينة " كوتائيس "

حيث كنت أتعلم فى مدرسة ابتدائية للبنات . ومن أول ما وعت عليه عيناى أن ذلك الرجل الطيب قد تعرض للحبس أكثر من مرة نتيجة لنشاطه السياسى ، وكانت زوجته فيرا تتردد عليه فى السجن . كنت صغيرة ، وكان كل ما حولى يسترعى اهتمامى ، وانتباهى ، ويثير فضولى ، وكنت أتردد مع فيرا لزيارة زوجها . وبالمناسبة كانوا يعاملون السجناء حينذاك معاملة حسنة . وكان بيريا - زوج المستقبل - معتقلا مع الكسندر جيجتشكورى فى زنزانة واحدة .. لم أنتبه إليه حينذاك ، أما هو فذكرنى فيما بعد بأنه رانى فى المعتقل .

وبعد اعلان السلطة السوفيتية فى جيورجيا ، نقل الكسندر باعتباره من كوادر الثورة إلى العاصمة تبليسى ، حيث انتخب رئيسا للجنة الثورية هناك ، ووجدت نفسى أنا الأخرى أنتقل معه إلى تبليسى ، وكنت قد صرت شابة يافعة ، وكان بوسعى أن أعود إلى بيت أمى لكن علاقتى بها لم تكن على ما يرام . وذات يوم وكنت فى طريقى للمدرسة ، فوجئت ببيريا فى مواجهتى قرب البيت .. وكان كثير التردد على الكسندر ، ولذلك صرت أعرفه إلى حد ما . وفى تلك الفترة راح بيريا يلاحقنى بأحاديث الحب ، هذه المرة قال لى : " علينا أن نتقابل لنتكلم هذا أمر حتمى ، شئت أم أبيت " .ووافقته على لقاء ، دون أن أدرى دافعى إلى تلك الموافقة . وتقابلنا بالفعل فى حديقة " نادزاليديفى " بتبليسى ، وكانت شقيقتى وزوجها يعيشان فى تلك المنطقة بالقرب من الحديقة ولذلك لم يكن الحى غريبا على . هناك انتظرت بيريا ، وعندما جاء جلسنا معا متجاورين على دكة خشبية . وكان لافرينتى يرتدى معطفا أسود وصدارة طلابية . وانتظرت حتى بدأ هو الكلام ، فقال لى أنه يراقبنى منذ فترة طويلة وأنه معجب بى للغاية . ثم مضى فى حديثه إلى ما هو أبعد من الاعجاب قائلا : " إننى أحبك ، وأريد الزواج منك " .

كان عمرى حينذاك ستة عشر عاما لا أكثر، أما هو فكان يقترب من عامه الثانى والعشرين . وأخذ يسهب فى شرح ما ينتظره مستقبلا قائلا أن السلطة السوفيتية الجديدة ستبعث به إلى بلجيكا لدراسة ما توصلوا إليه فى تلك البلد فى مجال استخراج وتكرار النفط . ولكن السلطة اشترطت عليه أن يتزوج قبل السفر . وكان بيريا قد أصبح إلى حد ما أليفا بالنسبة لى ، كما أننى فكرت فى أن الزواج وإنشاء عائلتك الخاصة الصغيرة خير من الحياة أيا كانت فى بيت غريب احتملنى طويلا ، أو حتى مع الاقارب .

وتزوجت لافرنيتى بيريا ، دون أن أقول كلمة لأحد ، ودون أن أستشير أحدا . وفور زواجنا راجت مختلف الشائعات ، بدأ من أن بيريا اختطفنى انتهاء بقصة أنه اغتصبنى ذات ليلة فى عربة القطار . كلا .. لم يحدث شىء من كل ذلك لقد تزوجته بمحض ارادتى ، وبكامل وعيى " .

ولكن لعل نينا بيريا تكذب فى سنواتها الاخيرة مفضلة تبرئة ذمة رجل هو على أية حال زوجها ، كما أن التراب قد واراه منذ زمن ؟ .. لا أظن أنها تكذب فبيريا صديق لعائلة الكسندر جيجيتشكورى ، والناس كلهم من حولهم يراقبونهم ، وبعضهم ما زال على قيد الحياة حتى الان . ثم ما الداعى إلى الكذب ؟ .

وتمضى نينا بعد ذلك تسرد فصلا آخر مختلفا من حياتها مع بيريا فتقول : " فى يونيه 1953 اعتقلونى أنا وابنى سيرجى على حين غرة ، وحبسوا كلا منا فى سجن مختلف كعادتهم حينذاك فى تشتيت الأسرة الواحدة فى عدة معتقلات .. ولكنهم لم يتعرضوا لعائلة ابنى ، فظلت زوجته و أبناؤه الثلاثة فى بيتهم . وربما كان السبب فى ذلك زوجة ابنى وهى مارفا كانت حفيدة مكسيم جوركى الكاتب الذى كانت له مكانة خاصة لدى الثورة .

وحينما داهمتنى قوة الاعتقال ، ظننت أول الأمر أن انقلابا عسكريا قد وقع أو شيئا من هذا النوع : ثورة مضادة ، أو أن زمرة معادية للشيوعية قد تمكنت من الحكم فجأة . وفى كل الاحوال ، فإننى وجدت نفسى فى سجن " بوتيركا " بموسكو ، ووجدت نفسى عرضة لاستجواب يومى قاس ، ومنهك ، كفيل بتحطيم أعصاب أى شخص . وطالبنى المفتش الذى تولى التحقيق معى بأن أدلى بشهادة ضد زوجى بيريا ، معللا ذلك بأن الشعب بأكمله مستاء من الاعمال الاجرامية لبيريا . ولكننى تمسكت بشكل قاطع بأننى لن أتقدم بأية شهادة ، أيا كانت : سيان شهادة حسنة أم سيئة . ولم يمسونى بعد ذلك . ولكنى ظللت فى السجن لأكثر من عام بأكمله . وكان ذلك العام قاسيا ومرعباً .. فقد عشته كله فى الحبس الانفرادى فى زنزانة ضيقة من ذلك النوع الشهير حينذاك والتى لا يمكن للإنسان فيها أن يجلس أو يستلقى ليستريح . عاما كاملا قضيته على هذا النحو لا أدرى كيف خرجت بعده حية من ذلك السجن الرهيب " .

ومن سخرية القدر أن تلك الزنزانة المرعبة التى قضت فيها نينا بيريا عاما من العذاب كانت أحدى اختراعات البشرية التى طورها زوجها لافرينتى بيريا . لقد قضت نينا بيريا معظم حياتها فى قفص : قفص فاخر فى البداية ، تتجول بداخله بين الجنود ، وقفص مرعب فى النهاية وكان لديها ما يمكنها أن تتأمل فيه لاعوام مديدة ، بكل ما لها من حكمة وذكاء فطريين : هل كانت ضحية لذلك العصر ؟ أم شريكة فى جرائمه ؟ ..

وكان هناك مخرجان اثنان فقط أمام تلك المرأة المصنوعة من سحابة بعطر المشمش ولونه ، الأول أن تترك كل شىء خلفها ، وأن تنسحب من الحياة ، ولكن ذلك مخرجا إلى العدم والمخرج الثانى أن تواصل نينا بيريا حياتها بعينين مغمضتين ، معللة كل ما تعرضت له هى شخصيا ، وجرائم بيريا التى يقشعر لها البدن ، ثم اعدام بيريا ، وسجن ابنها .. بقصة الهدف المنشود .

***

كالينين رئيسا للدولة السوفيتية
ويكاترينا زوجته فى السجون المرعبة

وجد ميخائيل كالينين نفسه فى قمة الحكم منذ الأيام الأولى لثورة أكتوبر 1917 ، وعندما توفى ياكوف سفيردلوف عام 1919 ، لم تجد القيادة الجديدة مرشحا أفضل من كالينين لشغل منصب رئيس الدولة السوفيتية ، أو كما كان البسطاء يطلقون عليه : " عمدة الاتحاد السوفيتى " ، لأن السلطة الجديدة كانت تنظر إلى كالينين باعتباره من لحم الشعب ودمه ، كما أنه روسى قح . وما زال الكثيرون من الروس لا يتخيلون حتى الأن ، ولا يعرفون ، وهم يتجولون فى أحد أهم وأفخم شوارع موسكو " شارع كالينين " ، أن القمة الحاكمة نفسها لم تفلت من تنكيل ستالين ، وما زال الكثيرون من الروس لا يعرفون أن زوجة كالينين كانت رهينة المعتقلات الستالينية البشعة ، بينما زوجها يواصل الحكم هناك فى الكرملين ، وأن الآلة الجهنمية للتنكيل و الملاحقات جعلت يكاترينا تعيش فى قاع العذاب ، بينما يرفل زوجها وأولادها فى خيرات الكرملين ، وسلطاته ... ولنقرأ معا استمارة اعتقال يكاترينا زوجة أحد أهم قادة الدولة السوفيتية : " - اسم المعتقلة : يكاترينا ايفانوفنا كالينينا . لقب العائلة / لوربرج . الأصل القومى / استونية . مواليد / 1882 . والدها عامل متنقل باليومية . والدتها / غسالة . قبل الاعتقال / عضوة الحزب الشيوعى لعموم الاتحاد السوفيتى . المهنة / موظفة ، وسابقا عاملة نسيج . التعليم الذى حصلت عليه / الابتدائى . آخر مكان كانت تعمل به قبل الاعتقال / مفوضية الشعب للعدل ، عضوة فى المحكمة العليا لجمهورية روسيا الاشتراكية الاتحادية السوفيتية . مكان الأقامة قبل الاعتقال / موسكو - الكرملين . "

ولا تشير الاستمارة - لسبب ما - إلى وضع المعتقلة العائلى ، ناهيك بالطبع عن أنها لاتشير لسبب الاعتقال كما جرت العادة . ولكن معرفتى بحياة يكاترينا تمكننى من إضافة البند الذى أخفته الاستمارة : يكاترينا ايفانوفنا - الوضع العائلى قبل الاعتقال : زوجة لميخائيل كالينين رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى ، أم لخمسة أولاد ، اثنان منهم بالتبنى ، وثلاثة أنجبتهم هى من زوجها كالينين .

فكيف مضت حياة يكاترينا التى لم تحصل الا على الابتدائية ، بحيث تجد نفسها - وأمها غسالة - فى قمة الحكم ، وفى صدارة الكرملين الحاكم ؟ ثم كيف مضت حياتها مرة أخرى لتجد نفسها وقد انتقلت من الكرملين إلى المعتقلات ؟؟

عام 1906 عاد ميخائيل كالينين إلى قريته " فيرخينا ترويتسا " بزوجة استونية ، يلحظ الناظر اليها أنها قوية البنيان ، موفورة الصحة كما كانت طويلة

القامة ، ممشوقة القوام ، ذات وجنتين ممتلئتين ، وجه متورد متدفق بعلامات الحيوية . وقد اتضح صدق ما يردده الناس عندنا من أن الشعب الاستونى شعب محب شغول ، يتقن كل ما يشرع فى عمله ، فقد عكفت الزوجة الاستونية على البيت الريفى فغسلت كل ما فيه ، ونظفته ، وأعادت ترتيب كل ركن ، حتى جعلت البيت المهمل يتألق . وكانت تشتغل فى البستان الصغير الذى يمتد أمام البيت من مطلع الفجر ، فتغرس وتقلع ، وكانت إذا شرعت فى حش الأعشاب الزائدة تقوم بذلك بقوة وصبر يفوقان تحمل الرجال . وكان القلائل فى تلك القرية " فيرخنايا ترويتسا " هم من يعرفون ماضى تلك المرأة . كانت يكاترينا تنحدر من أسرة كبيرة العدد ، وعندما لم تكن تتجاوز الحادية عشرة بدأت تشتغل فى معامل النسيج فى استونيا . وعام 1905 كانت أحدى اللواتى شاركن فى ثورة 1905 ، ونتيجة لذلك ، كانت السلطات القيصرية تبحث عنها لاعتقالها . وعاشت مطاردة هاربة من القانون مدة طويلة ، وآوتها فى تلك الفترة امرأة بلشفية أخرى هى " تاتيانا سلوفاتينكايا " التى كانت تقيم فى بطرسبورج ، بل ومكنتها فى وقت لاحق من الاشتغال فى أحد معامل النسيج فى المدينة . ولكن يكاترينا تلك الاستونية العنيدة لم تكف عن ممارسة الثورة فى المعمل الجديد ، والتحريض ضد النظام القيصرى ، فقام المسئولون عن المعمل بتسريحها والتخلص منها ، فلم يبق أمامها إلا العيش دون وظيفة فى بيت تاتيانا سلوفاتينسكايا ، تساعدها فى شئون البيت .. وهناك التقى بها ، ورآها للمرة الأولى ميخائيل كالينين الذى كان فى ذلك الوقت عاملا بسيطا استهوته الثورة ، وما رسمته من أحلام ... ولم يمض وقت طويل من تعارفهما حتى صارت يكاترينا زوجة لكالينين ، وأما لبعض أطفاله ، وصديقة لزوجها على درب الثورة ..

وعندما عاد كالينين بيكاترينا إلى قريته ، لم تطل إقامته هناك ، وسرعان ما اتجه مع زوجته إلى بطرسبورج ، وفيما بعد كان يتردد على القرية من فترة لأخرى . وفى أحدى تلك المرات فوجىء أهل القرية - وكان ذلك عام 1910 - بعودة يكاترينا مع مجموعة كبيرة من الأطفال .. هذه المرة بقيت يكاترينا مدة طويلة على غير عادتها . كانت السلطات قد اعتقلت كالينين ، وكان على يكاترينا أن تنتظر يوم عودته ، وخلال ذلك استمرت ترعى البستان الصغير وتدير شئون بيتها وتربى الاولاد ..

1917 ، كان كالينين وسط المجموعة القيادية التى استلمت الحكم فى روسيا التى كانت تعيش قلقها العارم ، وهى تندفع نحو المجهول ، ومنذ أن ظهرت يكاترينا فى الكرملين - عام 1919 - بصفتها زوجة لرئيس الدولة ، وجدت نفسها فى بؤرة الاحداث الهامة والصغيرة .. وكيف لا ، وهى زوجة لرئيس الدولة الذى لا يعادل مكانته إلا مكانة لينين قائد الحزب والثورة وتعرفت تلك المرأة القروية البسيطة على كروبسكايا زوجة لينين ، ونا‌ديا اليلويفا زوجة ستالين ولفترة محدودة تركزت جميع النظرات النسوية فى الكرملين على يكاترينا. وقد ساعد يكاترينا كالينينا على ذلك أنها لم تحاول أن تبرز نفسها بشكل من الأشكال ، أو أن تدخل فى منافسة على الاستحواذ باهتمام الاخرين فكانت تسلك بصورة طبيعية ،

وتتعامل مع الاخرين بتواضع وبساطة بين جدران الكرملين . وربما أن أكثر ما ساعد يكاترينا على تجاوز ما حولها هو رغبتهاالعميقة وتعطشها الحار لأن تصبح مفيدة ، وقدرتها على النهوض بما يكفل إليها من أعمال ملموسة . وفى تلك الفترة درست يكاترينا فن التمريض ، وشاركت فى تنظيم المدارس ، ودور حضانة الأطفال ، ورياضهم . وقامت بنفسها بمحو أميتها لتفتح لنفسها آفاق المعرفة و العلم .. وبذلك كسرت يكاترينا الدائرة المحدودة للأعمال المنزلية والتى كان يمكن لها أن تبتلع حياتها بأكملها ، وبذلك أيضا اندفعت تلك المرأة الحيوية إلى رحاب المشاركة الحقيقية فى حياة الكرملين ، والقضايا العامة .. فهل كان ذلك هو خطؤها القاتل الذى زج بها فيما بعد إلى أبشع أنواع السجون ؟ ..

صيف 1919 كان كالينين قد تولى لتوه منصب رئيس الدولة ، ومعه شرعت يكاترينا فى الأشراف على ما سمي حينذاك بقطارات " ثورة أكتوبر " التى أخذت على عاتقها نشر الدعاية الثورية فى البلاد كنوع من الاعلام المتنقل ، واثبتت يكاترينا ـ المرأة التى قصت شعرها بعد مرضها بالتيفود ـ أنها امرأة ذكية العقل حقا ، وأنها تعى تماما مكانتها ، ولا تسىء استخدامها . وفى تلك السنوات انخرطت يكاترينا فى توزيع الكتيبات الدعائية ، وساعدت على انشاء وبناء وتنظيم رياض الأطفال فى الأقاليم ، ونشرت علم التمريض والعناية بالجرحى فى المستشفيات ، وكانت القطارات المتحركة ترغمها فى بعض الأحيان على أن تتخذ ـ وحدها ـ القرارات الهامة الحاسمة . وقد أحست يكاترينا فى تلك الفترة بتفتح امكانياتها التنظيمية والادارية ، وبتفتح مواهبها الخاصة وكان الجميع يلحظون ذلك ، ويقرون لها بما تحققه ، وكانوا يفرحون لظهور امرأة كهذه سيدة أولى للبلاد . وصيف عام 1921 سافرت يكاترينا مع أطفالها إلى " فيرخنايا ترويتسا " قرية زوجها ، وهناك انتخبت على الفور عضوة فى اللجنة التنفيذية للقضاء . وهناك أيضا راحت تمارس عملها بمتعة تمنحه طاقة كبيرة .. واستغرقها عملها الجديد فظلت فى القرية عاما بأكمله وليس صيف عابرا سريعا كما كانت تخطط فى البداية . وكانت تلك سنوات الجوع ، والانهيار الاقتصادى ، فكانت إلى جانب تربية أطفالها ، وعملها ، تساعد أم زوجها فى الاعتناء بالبستان ، وتفلح الأرض معها . نعم .. ففى تلك السنوات كان قادة الكرملين يجوعون هم أيضا ..

عام 1922 كانت الثورة تجتاز الخط الدقيق الفاصل بين الاستمرار فى الحكم أو الفشل وكان الكرملين قد بدأ يعزز مواقعه فى الداخل وفى الخارج وعام 22 عادت يكاترينا إلى موسكو ، وأصبحت نائبة لمدير معمل نسيج " العمل الحر " ، وبظهورها فى الكرملين أخذت تعتنى بحياة زوجها المشغول ، وكانت وطأة " المشاغل البيتية " تزداد ، فظهرت فى البيت مساعدة تدعى الكسندرا جورتشاكوفا ، وكانت امرأة وسيمة ، ذكية ومتعلمة ، تنحدر من أسر النبلاء الذين أفل نجمهم . ويوما بعد يوم ، مع مشاغل يكاترينا ، كانت أمور البيت بكاملها : العناية بالأطفال ، والطعام ، والملابس ، تنتقل ليدى الكسندرا ، وصار بوسع يكاترينا أن تهب المزيد من الوقت للعمل العام بعد أن تحررت من المشاغل النسائية اليومية . وبدا أن

أبواب الحياة العريضة تنفتح أمام المرأة الاستونية ـ التى كانت بالأمس القريب أمية ـ نحو عالم كبير ..

عام 1924 قامت يكاترينا بانعطافة مفاجئة ، وكان لينين قد فارق الحياة ، وأخذت مقاليد الحكم تستتب لستالين وفوجىء الكثيرون بسفر يكاترينا إلى منطقة " التاى " الواقعة فى جنوب سيبيريا الغربية ، مصطحبة معها صديقتها " فالنتينا أستراؤوموفا " التى كانت تعمل فى الإدارة التابعة لكالينين كاتبة اختزال ، ومع ذلك تخلت عن موقعها هذا ، وسافرت مع يكاترينا التى تركت رئيس الدولة وأطفالها فى رعاية الكسندرا جورتشاكوفا .

وفى " التاى " ، انهمكت يكاترينا فى العمل النقابى بكل ما أوتيت من قوة ، وقامت بتنظيم حلقات " محو أمية " للسكان ، كأنها تريد أن ترى الجميع على شاكلتها وقد تخلصوا من الأمية .. ولكن ذلك لا يسقط السؤال الذى تردد على ألسنة الكثيرين ، أو فى عقولهم : ما الذى يدفع يكاترينا إلى ترك بيتها وزوجها ولو كان ذلك ليدين أمينتين ، والاندفاع إلى مكان مجهول وتجربة لا ضرورة لها ؟ .. هل كان النمامون محقين عندما كانوا يتهامسون بأن كالينين وقع فى غرام الكسندرا جورتشاكوفا ؟ .. وأن ذلك قد أغضب الاستونية التى أخلصته الحب ، فقررت أن تهجر بيتها ؟ . لقد كانت الكسندرا سليلة النبلاء تعرف تماما كيف تدير جيدا وعلى افضل مستوى شئون بيت كبير لرجل كبير أما تلك الاستونية شبه الأمية فتطرفت فى سلوكها وبلغ بها الشطط كل مبلغ ، وصارت مديرة لمعمل .. ويؤرقها طموح شديد للقيام بدور ما .. فهل ستمسك بزمام البلاد عما قريب ؟ .

وإذا تركنا النميمة جانبا ، فإن رسالة وجهتها يكاترينا إلى ميخائيل تلقى الضوء على السبب الحقيقى الذى دفع تلك السيدة لهجرة الكرملين ، وهو السبب الذى أدى لاعتقالها فيما بعد . فى رسالة لياكاترينا من " التاى " تقول : " إنى لم أحس بأننى كنت هناك انسانة حقيقية ، فلم أكن سوى شخصية مزيفة فى ذلك المجتمع الذى انتسبت إليه فقط لمجرد كونى زوجتك . وكان كل ذلك بصدق ، أما الباقون جميعا فكانوا يكذبون ويتصنعون .. وقد سئمت كل هذا . ولم يكن من حقى أن أتكلم أو أفكر كما أريد أنا ، وكما أعتقد .. أين فى كل ذلك المثال الذى كنا نسعى إليه ؟ ما دمنا قد قسمنا الحزب إلى مجتمع متعدد الطبقات ؟ . اننى لا أريد أن أوضع فى خانة يحددها لى الاخرون .. كما أننى لست بحاجة للسيارات الفارهة ووسائل الراحة المختلفة ، ولست بحاجة أيضا إلى مختلف ألوان التكريم والتفخيم الزائف .. إن الأهم من كل هذا بالنسبة لى هو أن الناس ينظرون إلى نظرتهم إلى امرأة عاملة بسيطة ، نساجة سابقة عادية وفى واقع الأمر فإننى كذلك بالفعل ولا شىء أكثر من هذا " .

عندما كتبت يكاترينا رسالتها هذه كانت فى الثانية والاربعين من عمرها ، ولم تعد تلك التى تمردت فتاة شابة ، بل امرأة ناضجة ، آمنت بالمثل العليا ، واضج مقضعها وأثارها أن ترى تلك المثل وهى تتحطم أمام عينيها ، بعد أن بدأ يتشكل بسرعة من حولها داخل جدران الكرملين وخارجه شكل وقالب لسلطة جديدة

يحكمها الشعار الخالد " من استلم العصا أصبح سيدا " ، وإن كان الشعار مغلفا بمختلف الأقنعة والمصطلحات .

وبعد سبعة أعوام فى 1931 " هربت " يكاترينا إلى " ليتاى " مرة أخرى ، واشتغلت هذه المرة فى بناء محطة " تشيمال " لتوليد الكهرباء ، وشاركت فى بناء دور الاستجمام التابعة للجنة المركزية للاتحاد السوفيتى ، وكانت وهى تفلت من الكرملين تجد سعادة بالغة فى تربية الدواجن وزراعة الخضروات ، والانشغال بأعمال ربة بيت عادية ، كإنما لم تعش يكاترينا أبدا من قبل فى الكرملين ، بين الزعماء ، وكانت رسائلها إلى كالينين مفعمة بالحيوية والرضاء عن النفس والشعور بحب كل ما حولها ومن حولها ، حتى ليتشكل انطباع بأن يكاترينا قد عثرت فى منفاها الاختيارى على كل مسببات السعادة التى تحتاجها المرأة . ولم تكن يكاترينا تخجل أبدا إذا استدعى العمل ذلك ـ أن تستخدم اسم زوجها وعلاقاته ووضعه لتسيير أمور البناء وتطوير تلك المنطقة النائية الواقعة فى جنوب غرب سيبيريا . لقد كان مسلكها نموذجيا بالنسبة لزوجات الكرملين ، إلا أن العمل الشاق استنفذ قواها بعد أربعة أعوام ، فعادت لموسكو سنة 1935 . وكانت تلك الاعوام الاربعة التى قضتها يكاترينا فى سيبيريا هى أخطر سنوات الصراع السياسى داخل الكرملين وبين القمة الحاكمة ، فقد ماتت خلال ذلك ناديجدا اليلويفا زوجة ستالين موتها الغريب والمريب معا ، وتم اغتيال سيرجى كيروف فى ظروف مريبة فى لينينجراد، وكان معروفا أن ستالين يضمر له العداء ، لأن منظمة لينينجراد الحزبية التى ترأسها كيروف كان تشايع تروتسكى ، ولكن هناك سببا آخر هو أن كيروف فى مؤتمر الحزب السابع عشر 1934 فاز بأغلبية أصوات الحاضرين لشغل منصب السكرتير الأول للحزب فى مواجهة ستالين ، ولم يغفر له ستالين ذلك ، وأعلنت النتيجة فكانت ـ رغم التصويت ـ فوز ستالين الذى كان مرغما على الاعتراف لكيروف بأنه شغل المكان الثانى من حيث عدد الاصوات . وفور انتهاء الانتخابات تم اغتيال كيروف وكان الاغرب من ذلك أن قاتل كيروف " نيقولاى " قد رمى بالرصاص فور العملية كإنما لكى لا يمكنه قول شىء ، أى شىء . وبعد اغتيال كيروف بدأ ستالين أوسع عملية تصفيات لمعارضيه والتى بلغت قمتها عام 1937 ، وكانت المحاكمات للمعارضين تتم بواسطة ثلاثة أفراد يصدرون حكمهم على الفور وينفذ الحكم فورا . ومما يؤكد أن ستالين هو الذى أمر بأغتيال كيروف ، أن كيروف كان هو المسئول الحزبى الكبير الوحيد فى تاريخ السلطة السوفيتية الذى اغتيل ، بل وفى مقر لجنة الحزب فى لينينجراد ، فى غرفة مكتبه الشخصية .

فى هذه الظروف عادت يكاترينا إلى موسكو ، واستلمت عملا فى المحكمة العليا لجمهورية روسيا ، وكانت تصدر هى الاخرى أوامر الاعتقالات ، وأوامر الاعدامات ضد أعداء الشعب وزوجاتهم . هل اعتبرت يكاترينا أن مثلها العليا التى كانت تبحث عنها فى طريقها للتحقق ؟؟ . فى مارس عام 1938 تمت أكبر تصفية قانونية وجسدية للمعارضة بالمحاكمة التى عقدت لأنصار تروتسكى ، وبوخارين ، وبعد أربعة شهور ، فى أغسطس أصبح لافرينتى بيريا نائبا لنيقولاى يجوف وزير الداخلية حينذاك . وبعد ذلك بشهر واحد فى سبتمبر كانت يكاترينا تستجم مع

زوجها كالينين .. ولم يمض شهر واحد حتى صدر أمر باعتقال يكاترينا ، وذلك فى 25 أكتوبر 1938 . قبلها بأسبوع واحد اعتقلت صديقتها الحميمة " فالنتينا أستراؤموفا " .. وانتقلت الآلة الجهنمية لا تميز بين صانعيها وضحاياها الاخرين ، ولم يستطيع أحد بعد ذلك أبدا أن يوقف التعطش المستمر للدماء..

فى كتاب " ما لا يمكن نسيانه " لأناستاسيا لارينا ـ زوجة بوخارين التى اعتقلت هى الاخرى ، توجد هذه السطور : " وجدت نفسى فى المعتقل فى زنزانة واحدة مع فالنتينا أستراؤموفا صديقة يكاترينا زوجة كالينين ، وصرت ـ بغض النظرعن رغبتى فى ذلك ـ شاهدة على التطور الدرامى للتحقيق فى قضية فالنتينا . كانت فالنتينا من جراء كراهيتها العميقة لستالين تحاول دائما خلال أحاديثها مع يكاترينا أن تثبت لها أن ستالين طاغية ، مصاب بالسادية قضى على الحرس اللينيني ، وحياة الملايين من الأبرياء " وربما كان هناك من يتصنت على تلك الأحاديث بين المرأتين ، ربما كان هناك جهاز تصنت وضع خصيصا فى شقة كالينين أو ربما جرى ارغام يكاترينا ، وفالنتينا على الادلاء بالاعترافات التى تلزم الأجهزة لسبب ما ؟ .. وعلى أية حال فمن المؤكد أنه عند اعتقال يكاترينا وجد المفتشون وراء أحدى الصور المعلقة على الجدار تلك الرسائل التى كانت ترسل بها إلى كالينين . هل كان هناك من يعرف مسبقا بموضع تلك الرسائل التى استخدمت ضد يكاترينا ؟ ..

كانت لكالينين ميزة اشتهر بها فى أنحاء البلاد ، إنه أول من يعلم بالقرارات التى يصدرها والمراسيم التى يوقعها ، ولم يكن يوقع على شىء دون أن ينظر فيه ، ويقرأه . كان الأول فى ذلك المجال بعد ستالين ، وبعد بيريا وبعد سكرتير ستالين .. وعندما عرف كالينين بالعفو العام الذى يجب المصادقة عليه بمناسبة عيد الانتصار على الفاشية ، جمع أولاده وأملى عليهم نص الرسالة المعروفة إلى ستالين ، والتى يطلب فيها أبناء كالينين العفو عن والدتهم ، وها هو مقطع بالنص من بروتوكول أحد اجتماعات هيئة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى التى ترأسها كالينين ، وهو نص مؤرخ ب 14 ديسمبر 1946 :

" العفو عن يكاترينا ايفانوفنا كالينيا ، واعفاؤها من أداء مدة العقوبة قبل ميعاد انقضائها وإعادة الحقوق المدنية إليها " إمضاء : سكرتير هيئة رئاسة مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفيتى : أ . جوركين " .

وكانت كافة الاوراق والوثائق والمراسيم الصادرة عن رئاسة مجلس السوفيت تشتمل دائما على توقيعين ، الأول توقيع كالينين رئيس المجلس ، والثانى توقيع جوركين سكرتير المجلس . وقد يكون أمر العفو ذلك هو الوثيقة الوحيدة الصادرة عن المجلس والخالية من توقيع كالينين .. ربما لأنه مما يفوق قدرة العقل على التخيل أن يوقع الانسان على أمر بالعفو عن زوجته ، وأم أولاده ، ورفيقة حياته : المرأة التى أحبها عمره كله .

أية أفكار وخواطر مريرة وسوداء كانت تخطر لكالينين وهو فى قمة الحكم عاجزا عن مد يده لزوجته التى يعلم تمام العلم أنها بريئة ؟ وأن كل جريمتها أنها صرحت بشىء مما تعتقده وأية أفكار وخواطر مريرة وسوداء عاشتها يكاترينا

وهى ترى زوجها رئيسا للدولة وأولادها معه بينما هى ملقاة فى قاع زنزانة معتمة ، وهى زوجة لرئيس البلاد ، أو كما يطلقون عليه : عمدة الاتحاد السوفيتى ؟ .. واية مشاعر كانت تحرق قلب كالينين ، أو أية دموع كانت تلهب وجهه فى الليل وحده ؟ ..

***

بولينا زوجة مولوتوف وزير الخارجية: مَنديل أحمر وحماسة يهودية

وصلت بولينا جيمتشوجنا إلى موسكو من مدينة " زابوروجى " بأوكرانيا عام 1921 للمشاركة فى ملتقى نسائى دولى ، وكانت حينذاك فتاة شابة فى ربيعها التاسع عشر ، وعضوة فى حزب البلاشفة منذ ثلاث سنوات مضت . وكان المنديل الأحمر الذى تلف به رأسها يتماوج بين المناديل الحمر للمندوبات الاخريات الكثيرات ، لكن فيتشيسلاف مولوتوف ممثل الكرملين المسؤل عن تنظيم ذلك الملتقى وادارته توقف عند منديل بولينا ، وحفظه فى ذاكرته ، ربما للأبد حتى وافتها المنية فوقف مولوتوف عند جثمانها يبكيها .

بعد انتهاء الملتقى النسائى لم تعد بولينا كما كان مفروضا إلى بلدتها زابورجى ، بل انتقلت مباشرة إلى الكرملين ، لتصبح بما عرف عن اليهود من نشاط أحدى أكثر سيداته بروزا واستطاعت بسرعة بما لها من ذكاء وتبصر أن تدرك وهى تتأمل حياة الكرملين حقيقة البشر ، وجوهر الأشياء . وكانت بولينا هذه هى آخر من خرج إلى الشارع مع ناديجدا اليلويفا زوجة ستالين فى المساء الأخير من حياة ناديجدا التى خرجت منفعلة من سهرة مسائية للقادة حضرها ستالين ، وبعد ذلك عثر فى صباح اليوم التالى على ناديجدا فى بركة من الدماء قرب سريرها . ولكن قبل ذلك ، فى المساء الاخير من حياة ناديجدا بعد تلك السهرة خرجت ومعها بولينا ، فتنزها طويلا فى ربوع الكرملين بمفردهما .. وكانت ناديجدا تشكو لبولينا من حياتها مع ستالين والاخرى تنصت اليها بصمت أو تعقب بكلمة ما تهون بها على ناديجدا ، وهى تحاول أن تتفهم موقف ستالين وموقف زوجته ناديجدا . وعندما عثروا فى اليوم التالى على جثة ناديجدا ، كان أول من تم استدعاؤهم " أفيل نيوكيدزوة " ، و " بولينا جيمتشوجنا " . ويعتقد الكثيرون من المؤرخين أن ستالين لم يتعرض لبولينا حينذاك عام 1937 لكنه أضمر الشر لها ، وكان ستالين يتقن الانتظار والتربص حتى تحين اللحظة المواتية ، وقد انتظر حتى حلت تلك الساعة عام 1949 . ولكنى لا أوافق على ذلك بالنسبة لبولينا ، فقد كان الأمر أكثر تعقدا وعمقا فى هذه المرة . ولو أراد ستالين التخلص من بولينا ـ التى لا يعرف أحد ما الذى قالته لها ناديجدا قبل موتها المريب ـ لفعل ذلك فى الثلاثينات دون أن يكلفه ذلك جهدا خاصا . فقد كان لبولينا عيوبها الكثيرة التى تجعل الطعن فيها أمرا سهلا من وجهة نظر الدولة ، وعلى سبيل المثال كان أخوها الذى غادر روسيا أوائل القرن رأسماليا يهوديا أميركيا كبيرا ، وكانت بولينا عضوة حزب البلاشفة تراسله بصورة شبه منتظمة ، وتلك بحد ذاتها جريمة كبيرة فى ذلك الوقت . ولم

يكن ذلك ليمر مر الكرام على وزارة الداخلية التى كانت تتوغل بأعينها فى ثنايا الحياة الشخصية للبشر ، وخاصة من يعيشون فى الكرملين . ولو أراد ستالين لنكل بها ، لكنه كان بدلا من ذلك يوقع بنفسه جميع أوامر تعيين بولينا فى المناصب التى شغلتها : نائبة لمفوض الشعب الوزير للصناعات الغذائية ، ثم مسئولة عن ادارة تعليب الاسماك ، ثم مديرة للإدارة الرئيسية لصناعة العطور .. وكانت بولينا تثير عداوات كثيرة نحوها فى تلك الاماكن فى أحيان كثيرة . الصناعات الغذائية ، والاسماك ، والعطور .. إن تلك المناصب تثير الافتراض التالى ، أن بولينا لم تكن صديقة لناديجدا اليلويفا زوجة ستالين ، بل حليفة لستالين . وأنها كانت طيلة حياتها لا تحب زوجها مولوتوف وحده ، بل أنها أحبت ستالين أيضا ، ليس فقط باعتباره الزعيم ، القائد ، بل أحبته بصفتها امرأة أيضا ، ليس ذلك الحب البدائى ، ولكن بصورة معقدة بل ومتناقضة كذلك ، وكانت بولينا نفسها شخصية مركبة للغاية . فقد أصبح مكان سيدة الكرملين الأولى شاغرا بعد وفاة ناديجدا زوجة ستالين ، وسعت بولينا ـ بعد قليل ـ بالتدريج وشيئا فشيئاً أن تشغل ذلك المكان فى الكرملين لتصبح سيدته غير المتوجة ، سيدته الحقيقية وإن بصورة غير رسمية ، وكانت تحاول أن تبدو فى صورة المرأة التى أرغمتها الظروف على احتلال ذلك المكان ، لغياب صاحبته ، احتلاله مؤقتا لعشرة أيام .. لعشرة شهور .. لعشرة أعوام .. ثم وفقا للظروف بعد ذلك . وكانت تخلى ذلك المكان على الفور ما أن تحس بتبدل فى مزاج ستالين المتقلب ، ثم تعاود احتلاله من على مبعدة كإنما تجلس على طرف المقعد . وأعتقد أن ذلك الوضع أخذ يزعج لافرينتى بيريا وزير الداخلية السفاح منذ الايام الاولى لزحف بولينا التدريجى وأعتقد أيضا أن بيريا أخذ يجمع كل ما يتعلق ببولينا فى ملف خاص ، كما كان يعد تلك الملفات للأخرين . وربما يكون بيريا قد تقدم بالفعل إلى ستالين بملف بولينا لاعتقالها ، لكن ستالين رفض ،وربما يكون زوجها مولوتوف هو الذى اعترض على اعتقالها . ولم تكن العداوات التى أثارتها بولينا ضدها قد علمتها شيئا ، لأنها لم تكن من ذلك الصنف الحذر أو الجبان من النساء .

تقص يكاترينا كاتوكوفا جانبا من أحداث حياة بولينا فتقول : " عام 1945 كنت أقيم فى سكسونيا بألمنيا ، حيث كان زوجى المارشال كاتكوف يعمل ، وكان الكثيرون من اعضاء الحكومة السوفيتية يقومون بزيارتنا وهم فى طريقهم إلى " كارلوفى فارى " وهو مصيف علاجى شهير بتشيكوسلوفاكيا ، كان الكثير من قادتنا يفضلونه . وقدر لى أن أستقبل من بين زوارنا ـ بولينا جيمتشوجنا مع ابنتها . وكانتا ترتديان أفخم الملابس من أحدث الأزياء ، وتزينت كل منهما بقطعة من الفراء الثمين . وكانت بولينا امرأة ذكية للغاية ولا تقبل أن يجادلها أحد . وكان بصحبتها هى وابنتها خمسون شخصا .. أذكر ذلك جيدا لأنه بحلولهم جميعا نشأت مشكلة توفير الأماكن لمثل هذا العدد مرة واحدة . وصلتا الاثنتان بالطائرة مع أطبائهما الخاصين ، لكنهما أقامتا لدينا فى بيتنا بشكل مستقل عمن يخدمونهما . وبعد وقت سافرت بولينا وابنتها إلى " كارلو فى فارى " ، ثم لحقت بهما . وعلى الرغم من أنها كانت تقيم فى منزلى قبل ذلك بأيام معدودة ، إلا أنها فى ذلك

المصيف العلاجى لم تنتبه حتى لوجودى ولم تعتنى حتى بتحيتى تحية عابرة ولو من باب اللياقة . " إن هذه الصورة التى رسمتها يكاترينا كاتوكوفا تكشف عن أن بولينا لم تكن امراة سهلة ، وكانت تعرف كيف تستفيد من وضعها داخل هيكل الحكم ، بالاستعلاء على الاخرين . ولكن ذلك لم يكن هو الجانب الحاسم فى حياة تلك المرأة .. كانت هناك صورة أخرى ، هى التى قادتها إلى النهاية .. ففى أثناء الحرب العالمية الثانية تأسست اللجنة اليهودية السوفيتية المناهضة للفاشية ، وعام 1948 ظهرت دولة اسرائيل على خارطة العالم بقرار من الأمم المتحدة ، وبمساهمة نشيطة من الاتحاد السوفيتى الذى كان من الدول الاولى التى اعترفت باسرائيل بل وأعلنت عن اقامة علاقات دبلوماسية معها . وأصبحت جولدا مائير ـ التى أنهت تعليمها فى أوكرانيا ـ سفيرة لاسرائيل فى موسكو . وفى تلك الفترة أحس اليهود ، ومن كان منهم بالقرب من الحكم ، أو داخله بالانتماء لاسرائيل ، وهو ما شعرت به أيضا اليهوديات اللواتى كن زوجات للزعماء والقادة فى الكرملين ، ولكن إذا كانت يكاترينا فروشيلوفا ، وماريا كاجانوفييتش قد تمكنتا من مداراة واخفاء شعورها بالفرحة ، فإن بولينا جيمتشوجنا اليهودية زوجة وزير الخارجية السوفيتية لم تكتم مشاعرها ، وانطلقت معها الى أبعد مدى ، فأقامت مأدبة استقبال على شرف جولدا مائير ، وأخذت تتردد على السفيرة الجديدة ، وكان يقال أن الاثنتين صديقتان حميمتان من سنوات الدراسة المشتركة فى أوكرانيا . وتردد حينذاك أن بولينا وضعت مع جولدا مائير خطة لاعلان شبه جزيرة القرم مقاطعة يهودية ذاتية الحكم ، وأنهما قامتا باعداد الأوراق اللازمة ، وفكرة الخطة ، لعرضها على اللجنة المركزية للحزب ، لأن اليهود لم يكونوا سعداء بالمقاطعة النائية التى خصصها لهم الحكم السوفيتى فى بييروبيجان ، وتمنوا لو استبدلوا تلك المقاطعة بمنطقة القرم الخصبة بمناخها الرائع وثرواتها . وبدا أن بولينا ـ فى تلك السنوات ـ قد فقدت صوابها ، أو أن نشوة الفرحة قد أفقدتها القدرة على التقدير الصحيح لما يدور من حولها . وكان ملف بولينا معدا وجاهزا عند بيريا .. يضم كل الملاحظات القديمة ، والجديدة . وكان المطلوب فقط هو مجرد تحريك الملف ، حركة صغيرة ليقضى على بولينا تماما. وكان بيريا يتربص منتظرا . ومع نفور بسيط أحسه ستالين تجاه بولينا فى لحظة محددة ، سارع بيريا بتقديم أوراقها الى الزعيم . وفيما بعد قال مولوتوف عن ملف زوجته ، وكيف قادها الى الاعتقال : " عندما طالع ستالين فى أحد اجتماعات المكتب السياسى المواد التى حملها اليه رجال الأمن الخاصة ببولينا ، اصطكت ركبتاه . ولكن القضية كانت قد أعدت بالفعل ، وأصبح الفرار منها صعبا ، كما أن الاوراق كانت محكمة لا تخر منها المياه . وكان الاتهام الموجه لبولينا هو اقامة اتصالات مع منظمات صهيونية ، وإقامة علاقة خاصة مع جولدا مائير سفيرة اسرائيل فى موسكو ، ومحاولة تحويل القرم إلى مقاطعة يهودية . وعندما قلت لها عن الاتهامات الموجهة اليها صرخت فى : وهل صدقت أنت كل ذلك ؟ . كان عليها أن تدقق فى اختيار معارفها . بعد ذلك فصلت بولينا وأعفيت من كافة مناصبها ، ولكنها لفترة ما لم تتعرض للاعتقال ، ولم يمض وقت حتى استدعوها إلى اللجنة المركزية ، ثم اعتقلت بعد ذلك

الاستدعاء فورا . وانقطع كل ما كان يربطنى بستالين من الناحية الانسانية . وقد مكثت زوجتى بولينا فى السجن لأكثر من عام ، وظلت فى المنفى ثلاثة أعوام .. وكان عطف الدولة الوحيد علىَ هو ما يجود به بيريا من وقت لاخر ، حينما يتصادف مرورة قربى فى اجتماعات اللجنة المركزية فيهمس فى أذنى كأنما سرا : " إن بولينا على قيد الحياة " .

وتتذكر تاتيانا أوكونفسكايا التى تم اعتقالها مع بولينا فى نفس الوقت فى سجون الداخلية فتقول : " ذات يوم تناهى إلى - من خلال الباب الموارب لزنزانتى - صوت عال متدفع لامرأة ، وتعرفت على ذلك الصوت فورا : صوت بولينا التى كانت تصيح : " اتصلوا بزوجى " قولوا له أن يرسل لى الحبوب البديلة للسكر ، إننى مريضة بالسكر ، وليس من حقكم اطعامى كما يحلو لكم ، وهمست لى امرأة كانت معى فى الزنزانة : " إنها بولينا زوجة مولوتوف ، لا يمكنها أن تتأقلم مع وضعها الجديد أبدا ، ولا تدرى أن زوجها لايستطيع أن يمد لها يد العون ، فهو إما منشغل بالدولة ، أو أنه قد اعتقل هو الاخر . " . ولكن مولوتوف كان يحضر بانتظام فى ذلك الوقت اجتماعات المكتب السياسى ويلتقى بكبار المسئولين من الدول الاخرى ، وكان يظهر فى الاحتفالات العامة دون أن يدرى أحد بمأساته ، إلا القلة القليلة ومن ضمنها بيريا الذى كان يجود عليه من حين لاخر ، وكلما عن له بقولة " إن بولينا على قيد الحياة " وربما لاجل تلك الكلمات استمر مولوتوف فى عمله ، وربما كانت تلك العبارة هى إكسير الحياة الوحيد بالنسبة له حينذاك وبعد انقضاء سنوات عديدة ، بعد تشييع جنازة بولينا قال مولوتوف : " لقد أسعدنى الحظ كثيرا بأن جعل من بولينا زوجة لى ، فقد كانت امرأة جميلة وذكية ، والأهم من كل ذلك أنها كانت بلشفية حقيقية ، ومواطنة سوفيتية حقيقية . لم تكن حياتها موفقة بسبب كونها زوجتى ، وقد أدركتها مصاعب تلك السنوات لكنها كانت تفهم كل شيء ، ولم تكن تسب ستالين ، بل ولم تكن لتقبل أن تسمع أحدا يسبه ، لأن الزمن سيلفظ من يحاول الاساءة لستالين " . كيف حول ستالين الاخرين من حوله ، بينما هو يجلدهم ويمزق أسرهم إلى الترنم به ؟ وإلى التغنى بالعذابات التى فرضها عليهم ؟ ، وكيف قبل الكثيرون بأن يظلوا فى قمة الحكم ، بينما زوجاتهم قابعات فى السجون ، وهم أول من يعرف أنهن أبرياء ؟ .. أم أن اولئك الرجال الذين اعتادوا الحكم ، فضلوه ، ولو على حساب الاخرين .. بل الاخريات ؟ فلزموا الصمت وواصلوا الأدوار المرسومة لهم ؟ .

فى 9 مارس 1953 يوم دفن ستالين هبط من على منصة ضريح لينين رفيقا درب الزعيم الرهيب الميت : خروتشوف ، مالينكوف ، واقتربا من مولوتوف ، وهنآه بعيد ميلاده وسألاه وهما يتبادلان النظرات : " أية هدية يمكننا أن نقدمها لك ؟ " . فقال مولوتوف بحدة واقتضاب : " أعيدوا إلى بولينا " وخفض رأسه وحث خطاه مبتعدا عنهما .

عندما اعتقلت بولينا ظن الكثيرون أنها لن تصمد طويلا فى السجن ، وأن سنواتها صارت معدودة ، لكن الكثيرين لاحظوا أن مظهر بولينا قد تحسن ، وكانت تبدو أفضل من أى وقت مضى ، وأن أمراضا عديدة قد فارقتها . ويحدث ذلك فى

أحيان كثيرة ، لأن الناس يستجمعون كل ما لديهم من قوة فى الأيام الصعبة ، ويستنفرون طاقاتهم وهم يتصدون للظروف المحيطة بهم ، فيظلون على قيد الحياة بل ويحسون بتحسن ملحوظ . ومع ذلك ، فإن مثل هذه التجارب لا تمر دون أن تترك بصماتها على الإنسان ، فقد تعرضت بولينا فيما بعد لثلاثة أزمات قلبية ، ثم أجرت عملية جراحية فى القلب . إن الجسم الذى يقاوم الظروف ، ينهار أحيانا أمام الأحزان .

من يذكر الان بولينا جيمتشوجنا ؟ . لقد مات مولوتوف ، وماتت أيضا سفيتلانا ابنة مولوتوف و بولينا .. فهل ما زال الاحفاد يذكرون شيئا من ذلك الماضى المؤلم ؟ . ها أنا الان أجلس مع لاريسا حفيدة الزوجين مولوتوف فى شقتها ، أجلس معها فى المطبخ الصغير نحتسى الشاى ونحاول أن نلملم خيوط الماضى . قالت لى لاريسا التى تعمل مترجمة من الانجليزية للروسية :

- " عاشت والدتى سفتيلانا وسط جو خاص من الرعاية المبالغ فيها من قبل جدى وجدتى ، وجعلتها تلك الرعاية طفلة كبيرة لا أكثر ، مما دفع جدتى بولينا للاعتناء بى بنفسها ، وحاولت جدتى أن تتجنب خطأها فى تربية ابنتها فكانت تكرر لى : " إن الحياة معقدة جدا ، ويجب على الانسان أن يكون مستعدا لكافة الظروف والاحتمالات " . وأشرفت جدتى بولينا بنفسها على تعليمى ونشأتى . ويمكننى القول أن ميزاتى كلها من فضل جدى وجدتى ، أما عيوبى فقد اكتسبتها بنفسى . لم تكن جدتى امرأة عادية ، كان مظهرها يوحى دائما بأنها سيدة حقيقية ، وكان عدد كبير من الناس يترددون عليها ويقصدونها عندما كان جدى مغضوبا عليه فيما بعد فى عهد خروتشوف . وكانت تساعد الكثيرين . " .

وسألت لاريسا وأنا أترقب اجابة تنفى حب بولينا لستالين : " هل كانت بولينا تحب مولوتوف برأيك ؟ " فأجبتنى : " نعم .. لقد كانا يحبان بعضهما البعض حبا جما ، كانت تربطهما عاطفة من تلك التى تنشأ مرة فى المليون بين البشر . وكانت وهى تحتضر تناديه باسمه . وبعد سنوات عديدة عندما كان مولوتوف فى النزع الأخير كان - وأنا جالسة على طرف سريره - يظن أننى بولينا ، فيهمس بوجد " بولينا .. "

فمن هى بولينا إذن ؟ .. أهى امرأة من صميم الالة الحزبية البلشفية حقا ؟ ، أم أنها المرأة التى سمحت لنفسها بأن تصبح منقذة اليهود وكأنها خرجت من التوراة ، فعاقبتها الالهة نفسها ؟ .. الأرجح أن بولينا خليط من هذا وذاك ، بشخصيتها المعقدة وتناقضاتها الكثيرة ، إنها المرأة التى جمعت بين الايمان والكذب فى وقت واحد ، فطواها التاريخ دون أن يتوقف أحد عندها تقريبا . ومع ذلك فإن مثلث : ستالين - مولوتوف - بولينا ، حتى إذا نبذنا قصة حب ما ربطت بولينا بستالين ، يظل مثلثا من ذلك النوع الشكسبيرى الذى ينطوى على انفجارات العلاقات الدرامية ، الحادة ، والمأساوية .

الزوجات الثلاث
للمارشال بوديونى

كانت الزوجة الأولى لسيميون بوديونى قوزاقية اختارها زوجة له من قرية مجاورة ، إنها ناديجدا ايفانوفا . عقد قرانه عليها فى كنيسة " بلاتوفسكايا " مطلع عام 1903 قبل أن يتوجه للخدمة العسكرية فى الجيش ، ولم يلتق بها ، ولم يرها ، ولم تره بعد ذلك لمدة سبع سنوات كاملة قضاها هو فى الخدمة . وعام 1917 بعد أن حل الفوج العسكرى ، عاد بوديونى إلى قريته بلاتوفسكايا ، وهناك نظم بمبادرة منه فصيلة عسكرية " حمراء " ، وبعد وقت قليل ضم زوجته إلى الفصيلة ، فكانت تحارب معه كتفا إلى كتف ، وأصبحت مسئولة عن قسم التموين والأغذية التابع لقسم الرعاية الطبية ، مما مكنها من الحصول على الأغذية بصورة مستمرة ، خاصة أنها زوجة قائد الفصيلة . ترى هل كان بوديونى الفلاح البسيط ، ورجل الجيش الأحمر بحاجة لامرأة أفضل من هذه ؟ ، وهل له أن يحلم بأحسن منها ؟

وعندما هدأت الأوضاع ، وتراجعت الحرب الاهلية ، وحلت سنوات السلام ، وصل بوديونى إلى موسكو مع زوجته ناديجدا عام 1923 ، وبعد عام واحد فقط أطلقت ناديجدا النار على نفسها من مسدس . وكانت شائعات كثيرة قبل ذلك تحوم حول الزوجين ، وكان يقال أنها غير سعيدة بحياتها مع بوديونى ، وغير ذلك .. أما بوديونى فإنه بعد انتحار زوجته بسنوات طويله ، فضفض لابنته سيميون ببعض مما فى صدره فقال لها أنه كان يعيش مع أمها ناديجدا وكأنهما غريبان عن بعضهما البعض عند حلول عام 1924 ، وأنهما كانا يشعران أن حياتهما العائلية قد اختنقت ، ولفظت أنفاسها . وذات مساء كان بوديونى عائدا من عمله ، وكانت زوجته فى أحد المسارح بصحبة مجموعة من الاصدقاء ، فمضى بوديونى يقطع الشارع إلى منزله ، فوجد جماعة من الرجال تقف فى فناء بيته بشارع جرانوفسكى وقد سدت الطريق عليه ، فرفع بوديونى زرار الأمان من المسدس مستعدا لاى شيء ، إلا أن الرجال تنحوا عن طريقه ، فصعد إلى شقته ودخلها ، ووضع مسدسه على منضدة قريبة منه ، وقعد على طرف السرير ينزع حذاءه . وفى ذلك الوقت وصلت زوجته ناديجدا ومعها شلة الاصدقاء ، فرأت المسدس ، فما كان منها إلا أن تناولته ووضعته على صدغها وهى تمزح ضاحكة ، فصرخ بوديونى محذرا : " - اعطنى المسدس .. إنه محشو ، وزرار الأمان مرفوع " . فواصلت ناديجدا ضحكها قائلة : " إننى أجيد التعامل م .. " ، ولم تكمل ناديجدا الكلمة فقد دوت الطلقة القاتلة ، وترنحت ناديجدا ، وقد تجمد الجميع مذهولين .

وعام 1924 تزوج بوديونى للمرة الثانية بعد أن التقى بأولجا ميخائيلوفا خلال فترة استجمام كان يقضيها بعيدا عن عمله . وكانت أولجا تتمتع بصوت رخيم

وتحلم بأن تصبح مغنية شهيرة ، وكان بوديونى معجبا بذلك ، فقد كانت له ميول موسيقية شعبية ، إذ كان يتقن العزف على الهرمونيكا . وبعد عقد القران انتسبت أولجا للكونسرفاتوار ، ثم تخرجت منه ، وصارت بالفعل مغنية فى مسرح البولشوى . وعاشت أولجا مع بوديونى ثلاثة عشر عاما كاملة ، دون أن تنجح هى أو يفلح بوديونى فى بناء حياة مشتركة بينهما ، عاشا طيلة هذه السنوات ولكل منهما حياته الخاصة به .. وكان بوديونى يتوق بطبيعة الحال لانجاب الأطفال ، ولأن تكون له ذرية تحمل اسمه من بعده ، أما أولجا وقد صارت نجمة فإنها كانت تحرص بكل الطرق على قوامها وأناقتها ، وكانت تحرص أيضا على ألا يحرمها الأنجاب من الظهور فى الحفلات . ولم يكن دور الانثى يرضى أولجا ، ولم يكن البيت يكفيها فلكا تدور فيه ، فقد أرادت لو تلمع نجمة تغزو القلوب ويتلعثم أمامها المعجبون . ولم يكن هناك شيء سيء فى أمنية أولجا تلك ، إلا إنها لم تكن تتطابق مع أحلام بوديونى الذى تجاوز سن الشباب ، أحلامه بدفء الأسرة وبعدد كبير من الأطفال يحيطون به و يرددون اسمه . ولم يكن هناك أيضا شيء سيء فى أمنية بوديونى تلك .. ربما تكون أمنية من الطراز العتيق لا أكثر ، لكن نساء كثيرات أخريات كن على استعداد لتحقيق مثل تلك الامنية التى تعد طبيعية أكثر بكثير من أحلام أولجا بالمسرح والغناء والشهرة . وربما كان من الممكن الجمع بين الرغبتين ، بطريقة ما ، إلا أن الزوجين لم ينجحا فى هذا .

وبحلول عام 1937 ، كانت البلاد كلها ، وفى مقدمتها الكرملين ، تعيش فى هوس من البلاغات والتجسس والتحقيقات وشكوك الجميع فى الجميع والخوف من السجون والاعتقالات التى كانت تتم يوميا ، ولم يكن أحد يعلم ما الذى ينتظره غدا إذا ما قام البعض ـ لسبب أو آخر ـ باتهامه أمام السلطات بأنه معاد للنظام السوفيتى . وفى هذه الظروف اعتقلت أولجا صيف ذلك العام 1937 .

إنى أجلس الأن فى غرفة طعام تتوسطها مائدة ضخمة مستطيلة فاخرة ، وتجلس قبالتى " ماريا " الزوجة الثالثة للمارشال بوديونى ، وقد جاوزت الخامسة والسبعين : إنها امرأة قصيرة القامة ، لم يتمكن الشيب من كل شعرها رغم عمرها المديد ، وكانت تحدثنى كأنما تخاطب نفسها ، بوجه طيب عامر بالسكينة ، ونظرة وديعة من عينين مفتوحتين . قالت : ـ " جئت لموسكو عام 1936 من مدينة كورسك ، لكى ألتحق بمعهد الطب قسم الاسنان وكان المعهد بشارع كاليايفسكايا حينذاك ، وعشت مثلى مثل بقية الطلبة فى بيت الطلبة البسيط ، وكل همى أن أحصل على شهادتى . لكن حياة الطلبة الفقيرة كانت تدفعنى للبحث عن أقربائى فى موسكو ، لمجرد أن أتردد عليهم بعض الوقت لأكسر شعورى بجدران المسكن الطلابى . وكانت لى عمة تحيا فى موسكو هى فارفارا ، دعتنى لزيارتها بعد أن اتصلت بها هاتفيا ، وحددت لى موعد الزيارة بدقة أثارت استغرابى ، لكن عدت ففكرت فى أن لعمتى ابنة هى أولجا قد تزوجت من رجل كبير هو المارشال بوديونى الذى تعرفه البلاد كلها . وقلت لنفسى ربما يكون هذا هو السبب فى تلك الدقة البالغة التى ليست من عاداتنا . وخامرنى شعور شديد بالقلق وأنا فى طريقى لمنزل عمتى ، كيف ستكون الزيارة ؟ لكن عمتى فارفارا بددت قلقى هذا بمقابلتها الودودة

لى ، فصرت بعد ذلك أتردد على منزلها دون خوف . وكنت أقتصر على الجلوس إلى عمتى والثرثرة معها فى ذكريات عائلية تخصها هى وأبى ، ولم أكن أرى أولجا إلا قليلا ، لانها كانت منشغلة بالمسرح والغناء والحفلات ، أما زوجها المارشال بوديونى فإننى لم أره قط .

وذات يوم ، ذهبت إلى عمتى ، وطرقت الباب ، فانفتح أمامى ، ووجدتنى وجها لوجه مع المارشال الشهير ، زوج ابنة عمتى . سألنى : " لمن جئت ؟ " . فأجبته متلعثمة وقد تملكنى الخوف : " لعمتى فارفارا .. " ، فقال وهو يسدد نحوى نظرة متفحصة : " سأصطحبك إليها الان " ، ومضى يتقدمنى داخل الشقة ، فقلت له : " لاداعى لأن ترهق نفسك .. إننى أعرف الطريق فقال : " تعرفين الطريق ؟ إذن ليست هذه هى المرة الأولى التى تزورينا فيها ؟ فأجبته : " نعم .. إننى أزور عمتى منذ زمن " . وتركنى المارشال أتجه إلى عمتى وهو يشيعنى بنظراته مرة أخرى . فيما بعد عندما اعتقلت أولجا عام 1937 ، طلبت منى عمتى فارفارا أن أذهب إليها من حين لاخر لمساعدتها فى شئون البيت ، وصرت أرى بوديونى أكثر فأكثر بينما أنا أساعد عمتى .. وعندما كان بوديونى يأتى للبيت فترة الظهيرة ليتناول طعامه ، كنت أقدم له الأكل بفسى فكان يشكرنى وهو يبتسم لى .

وذات مرة بادرتنى عمتى بالسؤال : " هل لديك فى حياتك رجل ما ؟ رجل جاد النية ؟ فقلت لها وقد فوجئت بالسؤال : " كلا .. ليست لدى علاقة من هذا النوع . لماذا تسألين ؟ " . لكن عمتى لم تقل شيئا . ولعلها كانت تعدنى لأن أكون زوجة للمارشال بعد أن أصابها اليأس من خروج ابنتها من المعتقل . ولعلها قالت له أننى لست مرتبطة بشخص ما . لأن بوديونى فى اليوم التالى لذلك الحوار القصير سألنى مباشرة : " ما هو موقفك منى ؟ فأجبته دون أن يخطر لى شيئا : " إنك بطل شعبى ، وبطلى المفضل أنا أيضا " . فسألنى دون مقدمات : " هل تقبلين الزواج منى ؟ " . وحط على الذهول .. وطالت مدته وأنا لا أستطيع أن أجيبه بحرف ، ثم قلت له مستجمعة شجاعتى : " إننى خائفة " . فضحك طويلا وهو يقول : " إذهبى إلى أهلك وخذى رأيهم ، ثم ردى علىّ " . وانتهى من طعامه ثم غادر الغرفة . فهرولت إلى عمتى فى غرفتها أحكى لها بأنفاس متقطعة ما جرى . فقالت لى : " تزوجيه . إنه رجل طيب جدا ، وأنا أعلم ذلك وفى كل الاحوال فإنه سيقترن بأمراة أخرى حتى إذا خرجت أولجا من السجن ، لإنهما لن يكونا سعيدين معا أبدا . وللمرة الأولى عرفت أن أولجا كانت رهينة المعتقلات إذ لم يسبق لاحد ولا لعمتى أن تطرقت إلى تلك المسألة . وسافرت إلى كورسك حيث يعيش أهلى لاستشيرهم . وأصابت الدهشة أهلى البسطاء من عرض كهذا يتقدم به إلى مارشال الاتحاد السوفيتى ، والبطل الشهير . وعدت إلى موسكو بعد ذلك بالقطار وأنا أفكر طيلة الوقت : هل يمكننى أن أكون زوجة لرجل كهذا ؟ . وبعد وصولى بيوم ، كنت أقدم طبقا من الشوربة لبوديونى ، فحيانى ، وابتسم ، لكنه لم يقل شيئا عن الزواج . وبعد أن أنتهى من الطعام سألنى : " ماذا قررت يا ماريا ؟ " فقلت له : إننى موافقة " ، قلتها وأنا أحس بأذناى تلتهبان من الخجل . وتورد وجهه هو الاخر وقد تألقت الفرحة فى عينيه قائلا : " خفت أن أسألك لئلا يكون ردك هو الرفض" .

وعندما عشنا معا ، ظل يخجل منى لفترة طويلة ، فيخاطبنى بصيغة الجمع علامة على الاحترام ، فيقول لى : " أنتم قلتم أنكم ستعدون لحما وبطاطس .. فلماذا أعددتم سمكا ؟ " ، وكان أحيانا يتغلب على خجله منى فيتحدث معى بصيغة المفرد قائلا : " يا ماريا .. لماذا لم تأتى فى ميعادك " . وظللت أنا الأخرى أحس بهذا الخجل نحوه طويلا ، فكنت أناديه باسمه واسم أبيه علامة على الاحترام ، كما يفعل الغرباء معه ، حتى أنه ثار ذات يوم غاضبا وقد جن جنونه فصاح بى : " إننى زوجك .. اتعرفين هذا ؟ . أما سيميون ميخائيلوفيتش بوديونى فهو ذلك المارشال الذى يمتطى حصانا وتظهر صورته فى الصحف ، أما أنا فزوجك .. " . وبعد تلك الانفجار صرنا نعيش معا فى وئام بعد أن تحطم حاجز التردد والخجل ، وكانت حياتنا سعيدة ، وأخذ حلمه بالاطفال يتحقق ، وهو ما لم يفلح فيه مع زوجتيه السابقتين " ناديجدا " ، وأولجا " حتى أنه ظل مدة طويلة يعتقد أنه هو السبب فى عدم الانجاب . وظهر ابننا الأول سريوجى فى 13 أغسطس عام 1938 ، ثم أعقبته نينا فى 6 سبتمبر 1939 . وكنت مضطرة لأن أترك دراستى فى المعهد ، وهو أمر تأسفت له كثيرا ، وتأسف له بوديونى أيضا لكنه لم يرغب فى ترك طفليه فى رعاية أحدى الحاضنات . وكان يقول لى مكررا : " قومى بتربية الطفلين ، وسأدفع لك أنا راتب المنحة الدراسية " . وعام 1944 ولد طفلنا الثالث " ميخائيل " ، وعشنا جميعا فى وئام وسعادة منذ اليوم الأول من زواجى وحتى أخر يوم ، لم نتشاجر ولو مرة واحدة وكان شغوفا بالأطفال ، وكنت شغوفة بالأسرة ، حقا إنى لم أكن أعمل ، ولكنى تمكنت من إنهاء عدة دورات تعليمية مختلفة فى اللغة الانجليزية ، وتربية النحل ، والبستنة ، كما تعلمت فن التفصيل و الخياطة ، وأتقنت كل شئون البيت الاخرى . وكان بوديونى يخفينى دائما عن عيون الكرملين ومجتمعه ، ربما خشية منه أن يفقدنى مثلما فقد أولجا من قبل . وذات يوم ، وكان ذلك بعد انتهاء الحرب ضد هتلر ، اصطحبنى معه إلى حفل رسمى ، ووجدت أنه ينتحى ركنا بعيدا بينما بقيت أنا وحدى مع الزوجين جروموف ، وحينئذ اقترب ستالين منا ، وسدد إلى نظرة كأنما عمدا ، ربما لأنه لاحظ أننى كنت وحيدة فى جلستى وراء المنضدة . وكانت الموائد موزعة فى قاعة " جيورجوفسكى " بالكرملين ، وكان ستالين يحب أن يطوف حول الموائد والكأس بيده ليتحدث إلى الضيوف . وتوقف ستالين وراء ظهرى مباشرة ، ورن صوته من خلفى : ـ " إننى لا أعرفك .. من أنت ؟ " . ونهضت على الفور أقول وقد غاص قلبى بين ضلوعى : " أنا ماريا بوديونايا زوجة سيميون بوديونى " . وعقب ستالين بنظرته الصقرية الجارية : " آها .. هكذا إذن ، وأين سيميون ؟ ـ وتطلع ستالين بعيدا صوب أحدى الموائد حيث كان بوديونى واقفا وهو يكمل ـ إنه هناك يخاطب الطبقة العاملة . أننا جميعا نحسده على الوئام والوفاق الذى يسود عائلته ولكنه حسد من النوع الطيب .. " وغاص قلبى مرة أخرى بين ضلوعى من الرعب .

وتسترسل ماريا ثالث زوجات المارشال بوديونى فتقول : " لم يكن سيميون يكثر من مصارحته لى بحبه ، أو عشقه ، لكن صوته تهدج ذات مرة وهو يقول لى : " أشكرك يا ماريا ، لقد أطلت عمرى ، وأقمت لى عائلة . والان صرت

أتعجل العودة إلى البيت بعد العمل ، فقد حققت لى حلمى الذى ظللت أحلم به : أن أرجع بعد شغلى لكى ألاعب أطفالى وأمازحهم " ولكن خاطرا أسود لم يفارقنى وهو أنى أقمت سعادتى تلك كلها على مصائب الآخرين ، فلو لم يزجوا بأولجا ابنة عمتى فى السجون لما عشت هذه السعادة ، ولا كانت أسرتى ، وأطفالى الثلاثة ولا كان زو جى وبيتى " .

ولم يكن بوسعى الانصراف من بيت ماريا دون أن أتطرق للصفحة المأساوية من حياة بوديونى ، أعنى صفحة أولجا ميخايلوفا زوجته الثانية التى عاشت عمرها كله تتوق لأن تمسى نجمة فى سماء الفن . وسألت ماريا : " ـ ولكن كيف مضت حياة أولجا ابنة عمتك فيما بعد ؟ و قالت ماريا وقد أطرقت : لقد عادت أولجا إلى موسكو بعد أن قضت مدة عقوبتها بالكامل ، وعاشت بعد ذلك فى أحد المعسكرات الخاصة باعادة تربية من خرجوا من السجون من المعتقلين السياسيين . خرجت أولجا من السجن مريضة ، وعجوز ، وساعدها بوديونى على أن تحصل على سرير فى أحدى المستشفيات ، كما ساعدها أيضا فى الحصول على شقة لتعيش فيها . وقد خرجت أولجا من السجن وقد لازمها اختلال نفسى من جراء تجربتها الرهيبة فى المعتقلات التى كانت مصنعا لتحطيم البشر ، وكانت أولجا فيما مضى شابة جميلة ، فإذا بها تعود للحياة عجوز ، مريضة ، ملتاثة تقريبا لا تكف عن تكرار القصص والحكايات المفزعة المنطقية والخالية من أى منطق ، وكانت تكرر أن شائعة لاحقتها ولم تتركها وأن الشائعة كانت تقول لها بصوت بشرى أنها ـ أى أولجا ـ أرادت أن تدس السم لزوجها المارشال بوديونى وكانت تصرخ أحيانا بأن ذلك غير حقيقى ، وأن الاشاعة تتهمها بما لم يقع وما لم تفكر فيه أبدا وأن الجميع كانوا يمقتونها من جراء اتهامات باطلة . وكانت فى أحيان أخرى تروى أشياء فظيعة مثل أنها تعرضت لاغتصاب جماعى داخل السجن أكثر من مرة ولم يكن سيميون بوديونى يصدق ذلك ، أو لعله رفض أن يصدق . وكان يقول أن تلك تصورات عقل مريض . وطلب من أولجا أكثر من مرة أن تزورنا وأن تتردد علينا ، لكنها لم تفعل إلا نادرا خشية أن يزعجنى حضورها . كما فشلت كل محاولاتى لاقناعها بأنها ستكون على الرحب والسعة . وأخذت أولجا تغيب بالتدريج ، مستسلمة لأحلام الرعب والفزع التى تشكلت مما عانته فى السجن كما تشكلت من خيالها الذى اهتز ، وتحطم تحت وقع خطوات الحراس .

هكذا تحطمت حياة أولجا ميخائيلوفنا ـ زوجة المارشال سيميون بوديونى الذى بدأ حياته جندى خيالة عام 1903 ، وشارك فى الحرب فانتصر فى المواقع العسكرية التى خاضها على الرغم من أنه فلاح بسيط ، ثم شارك فى الحرب الألمانية ، والنمساوية ، والحرب العالمية الأولى ، ثم شارك فى الحملة الشهيرة على القسم الشمالى من ايران ، ثم شارك فى الحرب الاهلية مع البلاشفة ضد قوات الحرس الابيض ، ثم شارك فى الحرب العالمية الثانية ، وكان بوديونى شابا لا يزيد عمره مع مطلع ثورة 1917 عن أربعة وثلاثين عاما ، عندما تخير طريق الثورة ، وفى الثورة تخير البلاشفة ، ثم أصبح مارشالا .. لكنه لم يستطيع أن يحمى أولجا

رغم مآثره العسكرية تلك كلها . أما أولجا فكانت جميلة للغاية ، جمال من النوع الغجرى الساحر ، وكانت عيناها سوداوان ، تحيطهما ظلال ليلكية مبهمة .

ولكن ما سر اعتقال أولجا ؟

قيل حينذاك أنها وهى فنانة ومغنية تعرفت إلى احد الاجانب ، وأقامت معه علاقة ، وكان ذلك بحد ذاته جريمة لا تغتفر ، لأن النظام كان يعتبر أقل اتصال مع أى أجنبى دليلا مباشرا على التجسس والعمل ضد مصالح البلاد ، والنظام الاشتراكى . وسألت ماريا فاسيليفنا الزوجة الثالثة للمارشال : - " هل حاول بوديونى الدفاع عن أولجا ومساعدتها ؟ أم أنه كان غاضبا منها لانها كما قيل خانته مع أحد المواطنين الاجانب ؟ .. " . وبدلا من أن ترد على ، نهضت ماريا إلى صوان بالغرفة وسحبت منه ملفاً ضخما عتيقا ، ثم شدت صورة من خطاب كتبه بوديونى ، موجها إلى النيابة العسكرية يقول فيه :

" فى الشهور الأولى من عام 1937 تحدث معى الرفيق ستالين ، وقال لى أن أنباء وصلته من " يوجوف " بأن زوجتى أولجا ميخا ئيلوفنا تسلك على نحو غير لائق ، وأنها بذلك تسىء إلى سمعتى وتلطخها ، وشدد فى حديثه على أن ذلك لا ينفعنا بأية حال من الاحوال ، وأننا لن نسمح لأى كائن من كان أن يفعل ذلك . وأضاف ستالين بأنه إذا كانت المعلومات التى أدلى بها " يوجوف " بشأن علاقة زوجتى ببعض الاجانب صحيحة ، فإن لذلك معنى واحدا هو أن الاجانب يستطيعون ، أو أنهم قد استطاعوا بالفعل أن يجندوها لحسابهم . ونصحنى ستالين بالحديث المستفيض مع زوجتى بهذا الصدد . وبعد ذلك التقيت ب " يوجوف " الذى أخبرنى خلال نقاشى معه بأن زوجتى مع بعض الاخريات يترددن على بعض السفارات الاجنبية مثل السفارة الايطالية ، واليابانية ، والبولندية ، علاوة على أن زوجتى قضت سهرة ذات يوم فى البيت الريفى التابع للسفارة اليابانية وظلت هناك حتى الثالثة صباحا . وأضاف يوجوف أن لزوجتى علاقة شخصية تتجاوز حدود الزمالة بمغنى مسرح البولشوى " الكسييف " . وعندما سألت الرفيق " يوجوف " عن التهم المحددة الموجهة لأولجا من ناحية تلطيخ سمعتنا السياسية ، قال لى لا شىء حتى الأن أكثر من ذلك ، ولكننا سنواصل مراقبتها ، ومن ناحيتك لا تتحدث معها فى هذا الموضوع . وفى يولية نفس العام اتجهت مرة أخرى للالتقاء بيوجوف بناء على طلبه ، فقال لى هذه المرة أن زوجتى حين كانت فى السفارة الايطالية كان معها برنامج بميادين سباق الخيل ، فقلت له مندهشا : " ولكن مثل هذه البرامج تباع فى كل مكان لدينا ، وليس لها أية قيمة خاصة " . فقال : - " أعتقد أنه من اللازم اعتقالها ، وفى التحقيق ستتضح طبيعة علاقاتها بالاجانب وسنتمكن عبرها فى كل حالة من معرفة طبيعة علاقات الاخريات بالاجانب أيضا ، فإذا اتضح أنها بريئة فيمكن الافراج عنها فيما بعد " . وقلت له على الفور أنه ليس هناك أى أساس لاعتقالها ، لأنه لم يبرز لى أية أدلة بشأن أية جرائم سياسية لأولجا . أما بشأن علاقتها بمطرب مسرح البولشوى (وكانت لدى معلومات سابقة عن ذلك من الداخلية ويوجوف نفسه) فإن تلك تظل مسألة شخصية معيشية ، وليست قضية تخص أمن الدولة . وفى أغسطس 1937 عندما تغيبت عن موسكو فى رحلة عمل

لعشرة أيام ، تم اعتقال أولجا . وقد كنت ضد اعتقالها كما أننى لم أبادر إلى تحريك شىء من هذا النوع . وقد توصلت فيما بعد إلى أن يوجوف هو الذى حرك كل ذلك ، ليتمكن من تلطيخ سمعتى تصفية لحسابات قديمة وأنه عقد أمله على أن يستنطق زوجتى بشهادة ما ضدى . أما عن زوجتى فهى ابنة عامل بسيط من عمال القطارات ، لم أشهد منها أبدا أية علامة من علامات السخط على السلطة السوفيتية ، أو العداء لها ، وكانت متطلباتها المادية دائما شديدة التواضع ، ولابد لى فى الخاتمة من القول بأننى لا أثق فى أن زوجتى يمكنها أن ترتكب جريمة سياسية فى حق السلطة السوفيتية " 23 يوليه 1955 . ومع ذلك ظل يلح على سؤال وأنا أخرج من شقة ماريا فاسليفنا الزوجة الثالثة للمارشال : " لماذا لم يكتب بوديونى هذه الرسالة حينذاك .. عام 1937 ؟ " . هل هو الخوف من أن تمرغه السلطات بدوره فى الوحل ؟ أم رغبة الرجل فى الانتقام من امرأة خانته ؟ .. أم أنه النظام الذى جعل من برنامج لميادين سباق الخيل ، وزيارة للسفارات ، تهمة تستحق أن تحطم بسببها حياة الانسان ؟ وأى نظام هذا الذى حول الابطال مثل بوديونى إلى بشر يلتزمون الصمت حتى وهم يعرفون الحقيقة ، فلا يقولونها إلا بعد وفاة ستالين .. ؟ ألم يكن صمت المارشال من صمت كالينين رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفييت ؟ وصمت مولوتوف وزير الخارجية ، والاخرين ؟ ألم يكن ذلك جزء من الصمت العام ؟ . ومع ذلك فإننى أعتقد بأنه لو كانت تلك المرأة ماريا - وليست أولجا - ولو أن ماريا هى التى سقطت تحت عجلات التاريخ فى أواخر الاربعينات لحارب سيميون بوديونى من أجلها حربا مستميتة ، ولأضاف إلى سجله الحافل موقعة أخرى إنسانية .

***

أسطورة لاريسا
طائر نورس محترق
فى سماء ثورة

كتب فاديم أندرييف ابن الكاتب المعروف اندرييف يصفها فقال : " لم يكن هناكرجل واحد يمر بها دون أن يتجمد فى الأرض كالعامود ويظل يتابعها بنظراته حتى تختفى وسط الحشود . بيد أن أحدا فى الشارع لم يكن ليجرؤ على الاقتراب منها أبدا : فالكبرياء التى تشبعت بها كل حركة من حركاتها ، وكل انعطافة لرأسها كانت تحميها بجدار صخرى لا يدمر " . وقد بدأت أسطورة لاريسا ـ التى أعاد مختلف كبار الشعراء والفنانون صياغتها ـ فورا فى أعقاب الثورة ، عندما أخذ الكثيرون من البسطاء يرددون فى نفس الوقت أنه ليلة الاستيلاء على القصر الشتوى ظهرت امرأة على سطح المدرعة الشهيرة " أفرورا " وحدها بين البحارة الحمر ، امرأة لايمكن أن يكون لجمالها مثيل ، كأنها حلت من عالم آخر : طويلة القامة ، تتدلى وراء رأسها ضفيرتان من الشعر الأسود الفاحم ، وجهها شاحب ، لا تلوح فيه قطرة دم واحدة ، كأنها تمثال مرمرى . إنها لاريسا رايسنر المرأة التى أعطت الأمر لاطلاق المدافع من المدرعة افرورا لأول مرة معلنة انتصار الثورة . وحينذاك تمتم البسطاء الواقفين قرب المدرعة: امرأة على سطح سفينة أو مدرعة فأل غير حسن ومن المشكوك فيه أن تحسب لاريسا على نساء الكرملين وزوجاته ، لكن الرجال الذين ربطت مصيرها بهم كانوا جميعا من رجال الكرملين ، وكان أثر لاريسا فى سماء الثورة الملتهبة الأشبه بعلامة التعجب تأكيدا على قدرة المرأة . لكن قدرتها على ماذا ؟ إنها لم تكن سوى عونا موهوبا فى قضية التدمير الرجالى ، وربما كانت ترتدى " ملابس الغير " لأنها لم تكن تملك ثوبا خاصا بها ، ومن علو زمن آخر هو زمننا ، تبدو علامة التعجب التى خطتها لاريسا فى سماء الثورة الملتهبة أقرب لعلامة استفهام .. عن ماذا ؟ . ولكن من دون أسطورة لاريسا هذه لا تكتمل صورة المرأة فى تلك السنوات العاصفة ، ربما لأن لاريسا وحدها هى التى سعت لخلق نموذج امرأة الثورة الروسية على نمط نساء الثورة الفرنسيات ، ولم تنشىء ذلك النموذج بقلمها ، ولكن بحياتها كلها ، وبكل لحظات عمرها القلق القصير الذى لم يتجاوز الأحدى وثلاثين سنة .

" لاريسا " اسم يعنى باليونانية " طائر النورس " : السريع ، الجرىء ، القوى ، وقد كان الاسم على مسماه هذه المرة ، وتطابق مع حياة لاريسا التى ولدت فى بطرسبورج عام 1895 ، وفارقت الحياة عام 1926 . وقد أشار كل من كتب عنها

إلى جمالها : " رأيت امرأة هيفاء طويلة القامة ترتدى بذلة انجليزية متواضعة رمادية اللون ، وبلوزة فاتحة اللون ، مع ربطة عنق ربطت على طريقة الرجال ، وكانت ملامح وجهها السليمة التى تبدو وكأنها منحوته بيد ماهرة توحى بشىء ما متكبر وبارد غير روسى ، بينما يطل من عينيها تعبير ما حاد و ساخر الشاعر فسيوفولد روجيستفينسكى . أما الكاتب الشهير يورى ليبيدينسكى ، فقال يصف انطباعه عنها : " لم يكن ذلك جمالا عاديا ، ولا مألوفا ، فقد اختفت فيها نهائيا تلك النعومة الانثوية التى نعرفها ، وبدت إما كإلهة أغريقية ، أو كأنها " فالكيريا " إلهة القتال وقد انبعثت من بين أبيات الاساطير الايسلندية القديمة ولم تستطيع حتى النساء الأخريات أن يذكرون ذلك الجمال ، وإن بغيرة ، فكتبت عنها ناديجدا زوجة الشاعر الكبى مانديلشتايم تقول : " كانت لاريسا جميلة جمالا ألمانيا باهرا وثقيلا " . وكانت الاساطير تحيط بها دائما ، قيل أن جمالها يضرب جذوره فى أجدادها الذين كانوا من بارونات نهر الراين ، وعندما رسم الفنان فاسيلى شوخاييف لوحة لصورتها ، جعلها فى شكل الجوكوندا الايطالية ، مما وفر مادة للشائعات التى انطلقت بأن الدماء الايطالية تجرى فى عروقها . بينما راح البعض يقطع بأن أصولها من الشرق . وقد نشأت لاريسا فى أسرة صغيرة العدد من والدها البروفيسور ميخائيل رايسنر ، وأمها يكاترينا التى كانت امرأة طيبة القلب للغاية وموهوبة ، ثم أخيها ايجور . ومضت حياتهم على نحو طيب وسعيد . وكان أبوها ذا ميول ثورية يلقى المحاضرات على العمال من وقت لاخر ، وكانت تجد نجاحا كبيرا . وعام 1914 أصدر ميخائيل رايسنر مع ابنته لاريسا عدة أعداد من مجلة أدبية أطلق عليها " رودين " تيمنا باسم " رودين " بطل رواية تورجينف المعروفة بنفس الاسم ، وهو البطل الفوضوى الذى أنهى حياته وراء متاريس الثورة . ولكن لاريسا لم تقتصر على اصدار المجلات ، فقد احترفت كتابة الشعر طويلا ، ولفتت نظر الكسندر بلوك ملك الشعراء الروس المتشامخ المتكبر الذى لم يلق بالا إلى الشعر النسائى ، ولم يعترف به أبدا ، حتى اشتهر عنه قوله " عندما يكتب الرجل فإنه يتطلع إلى الالهة ، وعندما تكتب المرأة فإنها تتطلع إلى الرجل " ، حتى بلوك هذا المتعنت أعرب فى أمسية شعرية عن اعجابه بلاريسا بكلمات كثيرة طيبة ، وأن كان لم يقل كلمة واحدة بخصوص شعرها . وكانت قصائدها تشبهها : جميلة وباردة وفى بردها ذلك عاشت طاقة هائلة من التعطش لتأكيد الذات ، هذا التعطش هو الذى حرك قلمها فيما بعد ودفعه لخلق صور مبتكرة عن الحرب حين كتبت : " عجلات القطارات ، البكرة التى تجمعت فيها خيوط الأماكن " .

عام 1918 قطعت لاريسا أنهر الفولجا ، والكاما ، والبيلايا ، قطعت تلك المسافات كلها مع الأسطول العسكرى الذى ساعد الجيش الأحمر على استعادة المدن والقرى من أيدى الحرس الأبيض والفيلق التشيكوسلوفاكى ، وقد تحولت هذه المسيرة النهرية إلى أسطورة بفضل شخصية لاريسا ، وأيضا بفضل قلمها إلى حد كبير . وكان قائد الأسطول فيودور راسكولنيكوف شخصية قوية متعددة الجوانب ، وكان حادا ومميزا . وأصبحت لاريسا زوجة لقائد الاسطول ، تقاتل إلى جواره . وفى تلك الرحلة كان الأسطول يمر بعدد كبير من أراضى وضياع كبار

الملاك الروس التى هجرها أصحابها فى اضطرابات الثورة ، ولكن شيئا لم يمس فى بيوت الملاك وظلت الملابس والاثاث بل والطعام فيها كما هو ، وقيل أن ذلك بفضل لاريسا . كانت امرأة حادة المزاج ، متقلبة ، ترتدى مختلف الأزياء التى لا تمت لبعضها البعض بصلة ، فكانت تظهر على متن السفن تارة فى فساتين السيدات الفاخرة ، التى تصلح للسهرات الراقية جدا ، وتارة أخرى فى أزياء الفتيات الصغيرات الطائشات ، وحينئذ كانت تعامل الجميع من طاقم السفينة بمرح وبساطة شديدة . وفى كل ذلك ، كانت تضوى بكبرياء رقيق تارة ، وحاد تارة أخرى ، وكانت تلك سمة لأسرة رايسز ، وقد اعترف بها أولئك الذين أحبوا تلك الأسرة ، وأولئك الذين خاصموها ، وكانوا يقولون : " إن الشعور بالكبرياء يليق تماما بتلك العائلة ، مثلما يليق السيف ، والقبعة ، والرداء الطويل بالفرسان الثلاثة " وكانت لاريسا تهوى الخطر ، وتندفع صوبه ، وتفتش عنه لتلقى بنفسها إليه ، ويقص من اختلطوا بها فى تلك الرحلة أنها كانت تهوى الوقوف بالقرب من عجلة قيادة السفينة مكشوفة لرصاص القوات المعادية للثورة ، وأنها ذات مرة وقفت هناك سعيدة تضحك ، لأن زورقا سريعا مدمرا كان يشق المياه بسرعة فاتحا النيران صوبها ، ثم اختفى الزورق ، ولم نتمكن من تحديد مكانه الا عبر الطلقات المنهمرة صوبنا ، أما هى فقد غمرتها السعادة لأنها عاشت فى الخطر " وتثبت حياتها القصيرة المتوهجة أنها لم تكن تشعر أبدا بأن هناك حاجزا ما ، وكانت تسلك دائما على أساس أن كل شىء مباح . فمن أين واتاها هذا الشعور ؟ لقد كان وراء لاريسا رايسنر الكثير مما قد يخلق لديها هذه الحرية نشاط والدها الثورى ، واخلاصها الذاتى للبلاشفة ، ثم فيودور راسكولنيكوف القائد العسكرى للاسطول ، زوجها .

وإذا كان من المشكوك فيه أن تحسب لاريسا على زوجات الكرملين ونسائه ، رغم ارتباط مصيرها برجال الكرملين ، فإن لاريسا قد تنتسب إلى نموذج الفنانات الروسيات الشعبيات المنتشر فى روسيا ، اللواتى اعتبرن الحياة كلها بالنسبة لهن مسرحا ضخما لاظهار مواهبهن . فقد أدت لاريسا بشكل لامع دور الشاعرة التى تنسج الصور من الكلمات ، وأدت دور المرأة الثورية التى تشق طريقها عبر المستنقعات والوحل إلى مخيم الاعداء ، وأدت دور المفوض السياسى الذى يحرض المقاتلين ويقودهم إلى المعركة ، وأدت دور الصحفية القادرة على انجاز أصعب المهام ، وكانت تلقى بجسمها النحيل تحت الثلوج ، فى النيران وفى الصقيع وكانت تشرب المياه من البرك التى ركدت وتعفنت ، وكانت تمتطى صهوة الخيول جنبا إلى جنب مع الفرسان ، وتترع قلبها بمشاعر الخطر ، وتملأه بمتعة أنها قد تتلقى الرصاصة فى أية لحظة ، وكانت تسعد قلبها حتى النهاية بشعور أن الرصاصة لن تصيبها ، وكانت تسر بأنها عما قريب ستبدل هذا الزى بملابس وأزياء أخرى ، لأن دورا مختلفا تماما سيكون فى انتظارها بعد قليل . ونتيجة لتلك اللعبة التى لم تخلو من المقامرة ، أصيبت لاريسا فى أحد جبهات الحرب الأهلية بالحمى الاستوائية ، وعذبها المرض ، لكنها تغلبت عليه برجولة أيضا . وعندما دنا الموت منها بالفعل فى اللحظات الأخيرة من عمرها ، أفاقت لاريسا للحظات من

الحمى والهذيان ـ وكان التيفود يتأكلها ـ وقالت : " الأن أحس بمدى الخطر الذى يتهددنى " . ولم تكن ترفض لنفسها شيئا ، لا امكانية أن يصرعها أفراد الحرس الأبيض برصاصة عابرة ، ولا امكانية الموت بالتيفود ، ولا امكانية الحياة على طريقة القياصرة هناك حيث يموت الناس جوعا وكانت لاريسا قادرة على تحويل أى سلوك مناف للأخلاق إلى مأثرة وبطولة . قص الشاعر المعروف " ماندیلشتام " لزوجته كيف أقامت لاريسا ذات يوم أمسية فى بيتها خصيصا لكى تسهل على رجال اللجنة الاستثنائية اعتقال المدعوين . وكان بوسعها ـ فى نفس الوقت ـ أن تحمل أكياس الأغذية والطعام النادرة حينذاك إلى الشاعرة " آنا أخماتوفا " التى تتضور جوعا . لم تكن المأثرة هنا فى الحصول على الطعام فقط ، ولكن فى أن تلك المرأة التى لا تنثنى كانت تهتز وتنثنى تماما أمام الشعر الحقيقى ، وهى أول من يعلم أن قصائدها هى ضعيفة القيمة والأثر . وكانت لاريسا حزمة من التناقضات الحارة ، المتوهجة ، وكانت لحمة خالصة من الأنانية المزدهية بنفسها ، والعشق اللا متناهى للحياة ، وقد أضاءت الثورة و أحداثها الضخام هاتين الصفتين فيها .

عام 1923 فارقت زوجها راسكولنيكوف فجأة وبشكل حاد . كانا قد سافرا إلى أفغانستان سفرا موفقا ، بعد أن قررت الحكومة إرسال راسكولنيكوف إلى كابول فى مهمة دبلوماسية . وهناك وجدت لاريسا نفسها كما كان متوقعا فى مركز اهتمام السلك الدبلوماسى كله لكنها بعد وقت قليل عادت إلى روسيا دون أن تقول شيئا لأحد ، ودون أن تفسر سبب عودتها المفاجئة . عادت دون أدنى التفاتة منها للوراء ، وبلا رجعة ، الأمر الذى كانت تجيده وحدها هى فقط . وظل راسكولنيكوف وحده فى كابول ، يعانى من الفراق المفاجىء ، ويرسل إليها الخطاب أثر الخطاب يناشدها العودة كتب يقول لها : " لا شك أنه يوجد رجال كثيرون ، و لكن أين لك أن تجدى رجلا مثلى يعشقك بهذا الجنون فى العام السابع من زواجنا ؟ ولتدركى أنه ما من حدود ـ ليس لمحبتى لك فقط ـ ولكن لاحترامى لك أيضاً " .

كانت جميع مآثر لاريسا ، والأزياء المتعددة التى ارتدتها ، وبطولاتها المختلفة تدور على خلفية من الجوع القاسى ، والتدمير ، والانهيارات ، وكانت لاريسا تحارب وترقص وتصدر الأوامر باسم الثورة لاطلاق المدافع ، وتؤكد ذاتها بقوتها الفتية ، الساحرة . ولكن من المشكوك فيه أن البحارة البسطاء من الرجال الروس الخشنين كانوا يأخذون على محمل الجد أحاديث لاريسا اليهم ، ومن الصعوبة بمكان التصديق بأن كلماتها التى كانت توجهها إليهم كانت قادرة حقا على الهامهم : " إيها الرفاق البحارة .. إنكم رجال شجعان . ومقاتلون ممتازون . وقد قدر لى أن أكون فى قازان وأن أرى كيف قامت قوات البيض باعدام رفاقنا هناك .. إنه مشهد لا ينسى . وقد قطعت المسافات عبر الجبهات لأصل إليكم ، وها أنا بينكم لأحييكم ، وها أنا بينكم سعيدة بلقائكم " .. ومع ذلك كانت لاريسا تثير حماسهم لسبب ما ، ربما لأنها كانت تنعش الرجال المنهكين من الحروب بشىء ما ، يذكرهم

بأن لكل منهم هناك فى مكان ما امراته هو أيضا ، ربما لا تكون بهذا الجمال ، لكنها على أية حال امرأته هو .

بعد مضى شهر تقريبا من إعدام عائلة القيصر السابق ، اتجهت لاريسا رايسنر من "سفياجسك " إلى مدينة " نيجنى نوفوجورد " ضمن قوام أسطول الفولجا العسكرى على متن يخت القيصر السابق ، وهو اليخت المعروف باسم " ميجن " ، وكانت تمزح كثيرا بخصوص أنها هى " لاريسا رايسنر " تمخر عباب النهر بيخت القيصر ، وهو ما لم يخطر لها حدوثه أبدا ويتذكر " بيرلين " وهو أحد من كانوا معها فى تلك الرحلة بعضا من مزاحها فيقول : " كانت لاريسا تبدو منتشية وهى تستقر فى مخدع الامبراطورة السابقة . وذات يوم عرفت لاريسا من أحاديث وثرثرات طاقم العاملين على اليخت بأن الامبراطورة السابقة التى قتلت لتوها خدشت اسمها بالألماس على زجاج نافذة فى صالة اليخت المخصصة للراحة وتناول الطعام ، فقامت لاريسا فورا ، بنوع من المشاكسة ، واتجهت الى زجاج نفس النافذة ، وفى نفس المكان خدشت لاريسا اسمها هى بدلا من اسم الامبراطورة ، وبالألماس أيضا " . ولسبب ما لا يذكر بيرلين كلمة بشأن الطريقة التى حصلت بها لاريسا على الألماس ، أو الجهة التى أخذت منها . ولكن أليست لاريسا هى التى قالت ذات مرة : إذا كان بوسع الانسان أن يكون ممتعا لعيون الأخرين فلماذا لا يكون كذلك ؟ " .

كانت لاريسا تشترط الكثير فى الرجال : شمولية العقل الكبير ، الشجاعة ، الحنان ، والعزيمة التى لا تنثنى ، وعلاوة كل ذلك كانت تتطلب منهم أن يعبدوها . لكن لينين كان استثناء من كل ذلك ، فقد كتبت لاريسا فى رسالة لها تقول : " إنكم تعرفوننى حق المعرفة ، فأنا لست من الجبناء ، ولكن عندما يتصادف أن أكون إلى جوار لينين ، فإننى أشعر بالارتباك ، وأمسى وجلة كأنى صبية صغيرة .. إنه شىء ضخم حقا " . كانت تلك الأماكن النسائية حول لينين مشغولة منذ زمن بعيد ، ولم يكن للاريسا ما يمكن أن تقوم به فى حياة ذلك الرجل ، الوحيد الذى جعلها ترتبك ، وبذلك ظلت خارج اهتمامه الشخصى ، وإن خدمت قضية الثورة التى كرس لها لينين حياته كلها .

عندما انتهت الحرب الأهلية ، اتجهت لاريسا بنظراتها إلى الأوساط الثقافية وخاصة الشعراء ، ويتذكر الكاتب ليف نيكولين الأحاديث التى شاعت فى بطرسبورج عن نزهات ملك الشعراء الروس الكسندر بلوك مع لاريسا وهما يعتليان صهوات الخيل . وكان تطلع لاريسا إلى بلوك أمرا طبيعيا ، فقد كانت تعبد شعره ، وتأمل فى قريرة نفسها أن تمسى هى الأخرى بمعجزة ما شاعرة كبيرة ، ذلك كان حلمها القديم الدفين والخفى . لكن آنا أخماتوفا سدت الطريق على لاريسا لأن أخماتوفا كانت سيدة القصيدة دون منازع وسط النساء . وقبل الثورة اندفعت لاريسا ـ بسبب أحلامها الفنية تلك ـ إلى علاقة مع نيكولاى جوميلوف الذى كان بطلا من أبطال الحرب العالمية الأولى التى تطوع فيها كجندى خيالة فى الجبهة الألمانية ، ونال وسامين لما أبرزه من شجاعة فى الحرب . وفى سنوات الثورة كان يقوم بالتدريس فى معهد تاريخ الفنون ، وكان أحد المشاركين فى هيئة عرفت

حينذاك بهيئة " الثقافة البروليتارية " ، وكان يحاول التعاون مع السلطات السوفيتية الجديدة ولكن بضمير حي . وفجأة فى 3 أغسطس 1921 اعتقل جوميلوف ، وشاع أن ذلك لارتباطه بما جرى فى مارس من نفس العام حين وقعت " انتفاضة كرونشتادت " التى اعتبرتها السلطة مؤامرة معادية للنظام دبرها الاشتراكيون الثوريون الفوضويون من عملاء أجهزة البلدان الأجنبية . وتم إعدام جوميلوف مع الأخرين رميا بالرصاص ، رغم أن مكسيم جوركى بنفسه ناشد الحكومة انقاذ حياة الشاعر الشاب . قبل ذلك كانت لاريسا على علاقة بجوميلوف ، وكانت تعشق شعره ، فلماذا لم تتدخل لانقاذه وهى شخصية نافذة إلى دهاليز الحكم الجديد ؟ . الجواب بسيط لأن لاريسا كانت حينذاك فى أفغانستان بعيدة عن روسيا . وها هى تحاول من جديد أن تبعث أحلامها القديمة بالشعر الحقيقى فتتجه لعقد أواصر الصداقة مع الكسندر بلوك . لكن ذلك كله لم يستطع أن يخفى خيبة الأمل العميقة التى كانت تشعر بها لأنها لم توفق فى أن تصبح شاعرة بارزة ذات شأن رفيع . وفيما بعد فى الستينات عندما كتب عنها " كراموف " روايته " نسيم الصباح " ، ضمن تلك الرواية سطورا من رسالة كان جوميلوف قد كتبها للاريسا فى العشرينات يقول لها : إن لك عينين جميلتين صافيتين ، وطاهرتين ، لكنك لا تبصرين ، ساقين شابتين ، لكنك بلا جناحين إنك الأميرة التى تحجرت فأمست تمثالا معبودا " . ولكن مأساة لاريسا الفنية لم تكن فى ضعف مشاعرها ، ولكن فى أن الشعر بالنسبة لها كان أحد الأزياء الجميلة التى يمكن للمرء أن يخطف بها أبصار الاخرين . وربما كان ذلك أيضا هو مغزى الحياة بالنسبة لها . ولهذا انكبت لاريسا على العمل الصحفى ، وكانت تكتب كثيرا ، وبصورة موفقة ، وكانت تجمع مقالاتها فى كتب أخذت تروج وتلقى نجاحا واضحا . وكان الكثيرون يعرفون أن رجلا قادراً يقف وراء التحول الأدبى للأسلوب الصحفى للاريسا رايسنر . إنه كارل راديك زوبلسون ، أحد الأعضاء السبعة الذين عملوا بعد وفاة لينين فى المكتب السياسى للجنة المركزية لحزب البلاشفة ، وكان صحفيا غزير الانتاج ، ويتمتع بذكاء واقتدار واضح . وقد تمكن كارل راديك من كسب لاريسا باهتمامه الدؤوب بقراءة مثابرة لكل ما تكتبه ، وبنصائحه الصبورة لها حتى آخر أعوام حياتها القصيرة . وكانت لاريسا تكره البقاء فى الظل ، وكانت مولعة بعالم الشعر ، إلا أنها انسحبت ببطء من الشعر إلى النثر ، ومن النثر إلى المقالات الصحفية ، وسافرت بعد ذلك إلى هامبرج مع كارل راديك ، وكتبت من هناك عن المتاريس ، والثورة ، ثم أصيبت فجأة بالتيفود الذى أنهى حياتها .

عندما فارقت لاريسا الحياة ، كتب باسترناك قصيدة بعنوان ذكرى لاريسا رايسنر يقول : ـ حلت ساعة الندم العميق يا لاريسا ، وها أنا أقف عاجزا أمام الموت ، دون أن أعرف كيف تماسكت الرواية الحية ـ دون صمغ ـ على قصاصات الأيام " . ولا يمكن اتهام باسترناك بعدم الصدق . ولعله كان يحس أنه برحيل لاريسا انطوى للأبد سر نسائى فريد من نوعه . فيما بعد منح باسترناك اسم لاريسا لبطلة روايته الشهيرة " دكتور زيفاجو " . وكان باسترناك يعلم أن بطلته لا تشبه لاريسا فى شيء ، لكنه على حد قوله اراد تخليد ذكرى لاريسا .

وقد وصف الشاعر فارلام ساليف جنازتها فقال : " كان نعشها راقدا فى دار النشر بشارع " نيكيتسكى " ، وكان الميدان المقابل مزدحما بالناس ، لم يكن هناك موضع لقدم : العسكريون ، والشعراء ، والدبلوماسيون ، يلقون للمرة الأخيرة نظرة على خصل الشعر الأسود التى التفت حول جبين لاريسا " . لقد رحلت لاريسا دون أن تلحق بالأعوام القادمة التى طحنت فيها آلة الرعب زوجها السابق راسكولنيكوف ، كما طحنت كارل راديك الذى أيد تروتسكى فى البداية ضد ستالين ، ثم خان تروتسكى وتحول لمداح لستالين خوفا من السجون والعذاب فأدلى بمختلف الشهادات الزور ضد أصدقائه السابقين لكى ينجو بنفسه . لم تعش لاريسا تلك السنوات ولم تشهد كروبسكايا زوجة لينين وهى تبحث لنفسها عن دعامة تستند إليها فى العالم الذى أقامته بيديها . لقد رحلت لاريسا وانطوت معها رومانسية الثورة التى احترقت لاريسا فى سمائها مثل الشهب التى تخطف الابصار ، وتثير الدهشة من بعدها .

***

أسرة فورشيلوف وزير الدفاع
وقصة " اسفير " الجديدة

تجوب العالم منذ قرون بعيدة الأسطورة التى تؤكد أن ثمة مركزا يهوديا عالميا موحدا يوجه اليهود المبعثرين فى مختلف بقاع الأرض ، ويحدد لهم بتعليماته ما الذى ينبغى لهم أن يفعلوه ، وأن ذلك المركز فى بدايات هذا القرن ، وربما قبل ذلك أمر النساء اليهوديات بأن يبذلن قصارى جهدهن للزواج من الرجال الروس الذين ينتظرهم مستقبل باهر ، أولئك الرجال الذين يتطلعون إلى السلطة ويطمحون لأن يكونوا من الحكام ، وأن يحاولن التأثير فيهم بكل الطرق والوسائل لتوجيه قدراتهم فى الاتجاه اللازم للمركز اليهودى . وأعتقد أن جذور هذه الأسطورة تعود إلى " العهد القديم " (التوراة) وتحديدا إلى قصة إسفير اليهودية الحسناء التى تزوجت من " أرتحششتا " ملك فارس الأخمينى فأوقفت بذلك التنكيل باليهود . وحينما بدأت إسفير أوائل هذا القرن نشاطها فى روسيا لم تستطع أن تجد لنفسها " أرتحششتا " المنشود ، فقد كان القيصر الروسى نيقولاى الثانى متزوجا بالفعل ، أما رجال البلاط المحيطين به فكانوا يستنكفون الزواج من اليهوديات بل وغيرهن إذا لم ينحدرن من أصول عريقة . ولذلك اضطرت بنات اليهود إلى التفتيش عن أزواج لهن فى أوساط الثوريين ، وكان النفور الروسى من اليهود وتسكينهم فى مقاطعات معينة ، يؤجج لديهن الاندفاع نحو الثورة المعادية للقيصر لتجاوزتلك الأوضاع .

وهكذا ، فى بداية العشرينات خرجت مجموعة كبيرة من البنات اليهوديات من تلك الأماكن ، وطرن لملاقاة نفير الثورة ، وكن فتيات مختلفات ، يتميزن عن الاخريات مما سهل عليهن ايقاع " الشبان البسطاء " فى أسرهن . وكان الشباب الروس موضع اعجاب أولئك الفتيات ، لأن الروس يشكلون العنصر الغالب فى الدولة ، ومن ثم يمكنهم أن يمنحن اليهوديات الحماية التى لا يجدنها لدى الأزواج اليهود . وهكذا فى بداية الثورة وفيما بعد فى العشرينات والثلاثينات كان الكثيرون من القادة الحزبيين والعاملين المقربين من أوساطهم متزوجين من يهوديات : ـ أناتولى لوناتشيرسكى وزير المعارف ، ليف كامنييف رئيس مجلس مفوضى الشعب (مجلس الوزراء) ، الكسندر كوساريف سكرتير عام الكمسمول ، أندريه أندرييف عضو المكتب السياسى ، بوسكريبشيف السكرتير الشخصى لستالين ، فيتشيسلاف مولوتوف وزير الخارجية ، فيلكس درزجينسكى وزير الداخلية ، كليمنت فورشيلوف المارشال ووزير الدفاع ، سيرجى كيروف عضو المكتب السياسى ، بينما تزوج بعض القادة اليهود من روسيات مثل تروتسكى ،

وزينوفييف ، وسفيردلوف . والحق أن الاف السنوات من سلطة الرجال كانت هى التى تحكم العالم وتوجهه ، فإذا أراد الرجال وكان ذلك فى مصلحتهم فإنهم يدفعون بنسائهم إلى المقدمة لتنفيذ ما يريدونه هم ، وما يسعون لتحقيقه من أهداف وغايات ، ولم تكن الحروب التى اشتعلت على امتداد العصور المختلفة إلا من عمل الرجال ، والحروب للاستيلاء على منافذ على البحار ، والحروب للاستيلاء على الحديد والنحاس والذهب ، بينما لا تعير النساء كل ذلك اهتماما . وأيا كانت نواقص المرأة ، فليس من بينها فكرة سيادة أو تفوق شعب على آخر ، وحتى إذا ظهرت نساء ممن تعتقدن بأفكار التفوق ، فإنهن إما ينفذن مشيئة رجال آخرين ، أو أنهن استبدلن الطبيعة النسائية ، بطبيعة الرجال ، وهى حالة استثنائية . إن الرجل يعتقد أن الأرض ملك للإنسان ، بينما تعتقد المرأة أن الإنسان ملك الأرض . ولا أستطيع أن أجزم إن كان ثمة مركز يهودى عالمى يرسل باليهوديات ليقترن بالرجال ذوى المستقبل السياسى والاجتماعى أم لا ، ولكنى على ثقة من أنه كان هناك مركز سوفيتى تطاير منهارا ، كان يفضل ارتباط النساء والرجال لصالح البلشفية بغض النظر عن الاختلافات العرقية والدينية . وكان المثل النموذجى لتلك الحالة هى أسرة " فورشيلوف ـ كليمنت فورشيلوف ؟ وزوجته يكاترينا ."

والان تبدأ الصفحات التى ستظهر فيها من حين لاخر ذكرياتى الشخصية التى لا تتطرق لحياة الكرملين ، ذلك أننى ـ من زاوية ما ـ لم أعش تلك الحياة عند ارقى مستوياتها ، ولم اصادق ابداً ابناء قادة الكرملين ، اذ اننى لم اجد فيهم ما يستحق الاهتمام ، ولم يجدوا هم أيضا فى شخصى ما يستحق اهتمامهم . وكان أقرانى الذين تعرفت إليهم من محيط الكرملين مولعين فقط بموسيقى الجاز والأفلام الأمريكية ، والفودكا ، بينما انهمكت الفتيات فى التنافس على ارتداء أفخم الملابس ، وعلى أجمل الشبان الصالحين للزواج وللصعود إلى قمة الكرملين وكان لدى وسط أخر خاص بى ، وكنت سعيدة فى محيطى الشخصى هذا الذى تألف من مجموعة من الكتب والقصائد والروايات التى كتبها الاخرون .

عام 1941 ، مع بداية الحرب ، هاجرت أسرتى من خاركوف حيث كان أبى يعمل فى مكتب سرى لتصميمات الأسلحة ، وانتقلنا إلى مدينة " نيجنى تاجيل " ، وهناك قضينا سنوات الحرب الاربع ، وفى أواخر عام 1945 أرسلنا أبى أنا وأمى إلى موسكو ، لنسبقه إلى خاركوف التى تم تحريرها من الألمان ، وتوقفنا فى موسكو فى فندق صغير مواجه للكرملين ، وأذكر أننى نمت بعد السفر المرهق حتى مطلع الفجر عندما أيقظتنى أمى وهى تقول لى : سيأتى الأن العم بيوتر فورشيلوف ليصطحبك إلى منزله حتى أنهى بعض الاعمال فأمر عليك لاخذك . وتذكرت العم فورشيلوف ، كان يتردد على أبى ، لأنه كان هو الاخر مصمم دبابات . وأخذنى معه إلى بيته ، ففتحت لنا امرأة دون أن تهش لنا أو تبتسم ، ذات شعر أسود ، ودون أن تنطق بكلمة ، أجلستنى المرأة إلى مائدة الطعام ، وصبت لى كاكاو ساخن فى قدح . الكاكاو الذى لم يكن أحد يحلم برؤيته فى تلك السنوات . وأعدت لى سندويتشات ذكرتنى بطعام الكرملين الخاص الفاخر . وبعد قليل دخل علينا ولد صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره تقريبا عرفنى باسمه " كليم " ثم اصطحبنى إلى غرفة المكتبة ،

ورأيت هناك الكتب التى كانت كروبسكايا زوجة لينين قد حظرت قراءتها كلها : آنا كارنينا لتولستوى ، " الحياة " لموباسان ، ورواية " الشياطين " لدستيوفسكى التى كانت ممنوعة حتى البيرسترويكا ، ثم اصطحبنى كليم إلى شقة أخرى مجاورة لولد آخر من عمرنا ، وهناك انشغلنا ببعض الألعاب حتى دخل الغرفة أربعة رجال ، تقدمهم ستالين شخصيا ، ورآنا فتودد الينا بلغته الروسية التى رنت فيها لكنه جيورجية ، وسارع الاخرون بتشيعنا للشقة الأولى ، ودخل العم بيوتر قائلا للمرأة الصامتة : ستالين فى الشقة الاخرى .

وفيما بعد عرفت من أمى أننى كنت فى منزل كليمنت فورشيلوف وزير الدفاع ومارشال الاتحاد السوفيتى ، هناك حيث ستالين ، وأن المرأة الصامتة المتجهمة هى يكاترينا زوجته ، أما العم بيوتر فهو ابنهما بالتبنى ، ولم يكن الصبى الصغير " كليم " إلا حفيد المارشال من ابنه بيوتر وزوجته ناديجدا ايفانوفنا التى عاشت وسط أسرة المارشال ثلاثين عاما كاملة . وما زالت ناديجدا تعيش فى شارع " جرانوفسكى " بموسكو ، حيث انتقلت عائلة فورشيلوف كلها بعد وصول خروتشوف للحكم . ناديجدا زوجة العم بيوتر .. من غيرها يمكنه أن يصف لى قصة يكاترينا وكليمنت فورشيلوف ، وهى التى عاشت معهما طويلا فى شقة واحدة ؟ . تقول لى ناديجدا : ولدت يكاترينا فى قرية مارداروفكا بجنوب روسيا فى أسرة يهودية فقيرة جدا تحمل اسم " جوريمان " ، وكان لها شقيقان ، وثلاث شقيقات . وبجهدها الخاص تعلمت يكاترينا القراءة والكتابة قدر استطاعتها ، وقد سيطر عليها حلم الافلات من تلك القرية النائية التعسة ، وبعد وقت سافرت بالفعل إلى أوديسا ، وأضافت إلى خبراتها مهنة الخياطة ، وشرعت تتردد على مدرسة لاستكمال تعليمها وتصادف أن كانت سيرفيما جوبنر البلشفية تدرس فى تلك المدرسة ، ودون جهد خاص وجدت يكاترينا نفسها وقد انجذبت إلى فلك الحركة الثورية ، وانضمت إلى حزب الاشتراكيين الثوريين ، ثم نفيت عام **1906** إلى محافظة " أرخانجلسك " بشمال روسيا ، وهناك كان يوجد عدد كبير من المنفيين الاخرين من المنتمين للأحزاب السياسية الأخرى المختلفة ، وكان معظمهم من الرجال ، وفى هذه الظروف القاسية من المنفى كانت كل فتاة جديدة تظهر فى " أرخانجلسك " بمثابة شعاع من النور فى مملكة الظلام والوحشة . وكانت قصص الحب والوجد الكثيرة تنشأ وتتفتح فى المنافى ، وتتغذى من العذاب والمعاناة ، والشعور بأن كل هذا لأجل الوطن " روسيا الأم " .. هناك بدأت مثل قصص كثيرة حكاية المحبة التى تبرعمت فى قلب يكاترينا نحو أفيل نيوكيدزة فى بادىء الأمر ، وكان ثورى جيورجى وأحد أصدقاء ستالين . ولا يدرى أحد كيف بدأت تلك العلاقة ، ولكنها انتهت بالقطيعة والفشل . وحينذاك طفق الرجال الأخرون ينتبهون لتلك الفتاة " الاشتراكية " ، ذات العينين السوداوين ، لكنها كانت قد تعرفت إلى البلشفى المنفى كليمنت فورشيلوف ، وكان قصير القامة يتسم بجاذبية شخصية ، وقدر كبير جدا من الشقاوة والحيوية .

وتواصل ناديجدا حديثها إلى : أبدت يكاتيرينا منذ بداية تعارفها إلى كليمنت لباقة خاصة فى تعاملها معه ، ووضعت علاقتها به على محك الارتباط الجاد

المسئول . ربما لأنها أحست منذ اللحظة الأولى أنه رجل حياتها كلها ، وأنه الرجل الذى انتظرته بالفعل . ولم تكن تشك أبدا فى سلامة كل ما يقوم به أو يقوله ، ولم تسمح لنفسها أبدا بانتقاده ، وكانت تتبعه وقد أسلمت له ولقضيته ورسالته قيادها ، ولم يستطع شىء بعد ذلك أن يحرفها عن هذا السبيل طيلة حياتها . ذات مرة بعد وفاة يكاترينا بسنوات عديدة ، قال لى فورشيلوف فى لحظة من المصارحة أن يكاترينا كانت صادقة معه منذ البداية ، وأنها قصت عليه حكاية علاقتها العابرة بنيو كيدزة ، لكى تكون حياتها صفحة مفتوحة أمامة . وقد أطلق سراح يكاترينا قبل فورشيلوف بفترة ، لكن الفراق لم يدم طويلا ، فقد عادت إليه وسمحوا لها بأن تعيش معه فى المنفى بشرط أن يتزوجا فى كنيسة أرثوذكسية وفقا لكافة التعاليم والطقوس الدينية . واعتنقت يكاترينا الديانة المسيحية متخلية عن اليهودية . وثار والدها بعد أن علم بذلك ، ولعنها الحاخام فى مسقط رأسها مارداروفكا وسط حشد كبير من المصلين فى المعبد . ولكن تلك الزوبعة مرت .. كما انتهت مدة نفى فورشيلوف فسافر مع زوجته إلى مدينة " لوجانسك " بروسيا ، إلا أنه لم يتمكن من العثور على عمل ما بسبب بطاقة الهوية التى تسلمها بعد المنفى . وفى تلك الفترة كانت مهنة الخياطة التى تعلمتها يكاترينا هى مورد رزقها الوحيد .

فى أبريل 1907 اجتمع البلاشفة كلهم من كافة أنحاء روسيا ليستقبلوا لينين فى بيتروجراد ، وكان فورشيلوف ويكاترينا من الحاضرين ، والتقت يكاترينا أيضاً بمعلمتها السابقة سيرافيما جوبر التى زكت يكاترينا لدخول الحزب . وبعد ثورة أكتوبر 1917 بدأت مرحلة جديدة تماما فى حياة اسرة فورشيلوف ، وحياة الكرملين التى استمرت حتى عام 1959 .

اجتازت يكاترينا سنوات الحرب الاهلية كلها إلى جانب كليمنت فورشيلوف ، وكانت معه كتفا إلى كتف فى جبهة " تساريتس " (ستالينجراد) ، وكانت قد أمست من أكثر أعضاء الحزب استقامة ونشاطا . ولم تكن تعرف الوسط من الأمور ، لا بالنسبة لنفسها ولا بالنسبة للاخرين ، وكان ذلك شيئا مرهقا وثقيلا للمحيطين بها ، وكان الجميع يستغربون : " كيف يعيشان معا ؟ كلمنت الذى يحب الاختلاط بالناس ، ومعاشرتهم بطبعه الودود ، المرح ، ويكاترينا الصارمة ، التى قلما تنبس بكلمة ، بل المتجهمة ، التى تتوارى دائما وراء المبادىء الفكرية الرفيعة ؟ " . تتذكر ناديجدا قائلة : " لم تكن لدى يكاترينا خواتم أو أقراط من تلك التى تستعملها النساء ، وكانت تزدرى الحلى عموما ، وعندما اقترنت بابنها بالتبنى بيوتر قالت لى : " لا تفكرى فى تعليق قرطين .. أنت جميلة هكذا " ، وكانت على الدوام ترتدى بذلات شبه رجالية كأنها زى رسمى ، ولكن تلك الملابس كانت مفصلة بشكل ممتاز ، لأنها نفسها كانت خياطة " .

عام 1918 فى " تساريتس " كانت يكاترينا عضوا بالمجلس النسائى لجيش الخيالة الأول الذى كان يقوده سيميون بوديونى مارشال الاتحاد السوفيتى فيما بعد ، وكانت تشرف على شئون الاطفال اللاجئين والمشريدين ، وحينذاك أعجبها جدا أحد الصبية واسمه بيوتر ، فعرضته أولا على بوديونى ، فتعجب قائلا

لها : إنه ولد أشعث الشعر كأنه جدى صغير . ولكنها استغرقت فى أفكارها دون أن تلقى بالا لما قاله بوديونى ، وكانت تعلم تمام العلم أنها لن تنجب أبدا بسبب من مرضها ، أما الصبى فانطبعت صورته فى قلبها لا تغادره. واستدعت يكاترينا كليمنت ليلقى نظرة على الصبى ، فتطلع إليه لحظة دون أن يعنى بتأمله . فيما بعد تذكر بيوتر فورشيلوف ذلك المشهد بقوله : " لقد تعلقت بى ، ولم أكن أعرف لنفسى أبا ولا أما ، وكنت صغيرا جدا فتعهدتنى برعايتها وعطفها ، وكانت تحوك بنفسها الملابس لى ، وإن كان ذلك فى أغلب الاحيان تحويرا للموديلات النسائية التى كانت تحتفظ بها منذ أن كانت خياطة ، وفقط عندما عشنا معا كأسرة فى مدينة روستوف بروسيا ظهرت المربية الخاصة ليديا ايفانوفنا التى كانت تتكلم بالألمانية وتعلمنى اياها . لقد تبنتنى هى وكليمنت فورشيلوف عام 1918 ، وحينذاك لم أكن أتجاوز الرابعة من عمرى " .

عام 1919 جاءت يكاترينا من روستوف إلى موسكو ، وعاشت مع كليمنت وابنها بيوتر فى فندق " متروبول " ، ثم فى الكرملين بعد ذلك . وكانت تعمل وتقبل على الدراسة فى نفس الوقت وكانت تجوب البلاد وهى تجر من ورائها ابنها الصغير فى أعقاب قائد جيش الخيالة بوديونى ، وتمكنت من إنهاء المدرسة الحزبية العليا ، ثم انتسبت للعمل فى جريدة " الفقراء " ، ثم عادت للمدرسة الحزبية فاشتغلت هناك لسنوات طويلة رئيسة للمكتب الحزبى ، وكانت فى السنوات الأربع قبل موتها تعمل مديرة لمتحف لينين . وفى رحلتها تلك كلها لم تفارقها صرامتها ، ولا تحفظها المتشدد ، كأنها اعتبرت نفسها أنها هى الحزب نفسه بلحمه وشحمه . وكانت ابنة أخيها تطلق عليها من ورائها " عمتى الحزبية " . وعام 1928 أصيبت يكاترينا بمرض خطير ، واضطرت لاجراء عملية جراحية معقدة خارج البلاد ، لكنها بعد ذلك صارت تزداد بدانة وثقلا وكانت مازالت تحب الاطفال كثيرا ، وكان بيوتر قد نما وكبر ولم يعد يشبع عطشها للطفولة وللأمومة . ولهذا استضافت فى شقتها طفلين آخرين هما " ترودا " ابنة أخيها ، و " نيكولاى " ابن أخ كليمنت . وظهر فى بيتهما بعد ذلك طفلان آخران هما طفلا ميخائيل فرونزة القائد الشهير للجيش الأحمر الذى توفى عام 1925 ، والطفلان هما : تاتيانا ، وتيمور . وعندما توفى ميخائيل فرونزة بعد عملية جراحية ، راجت شائعات قوية بأنه " ذبح " فى المستشفى بناء على تعليمات من ستالين الذى لم يكن يحتمله ، وأن الاطباء هم الذين نفذوا تلك العملية ، وفيما بعد صبت رواية الكاتب بوريس بيلنياك الزيت على نار تلك الافتراضات ، لأنها كانت تومىء إلى عملية اغتيال فرونزة فى المستشفى ليلا . وورد فى تلك الافتراضات اسم كليمنت فورشيلوف على أساس أنه كان ضالعا فى عملية الاغتيال .

لعل شباب يكاترينا كان يذبل مع حماسها السابق للثورة ، وخلف أسوار الكرملين الذى تحتم عليها أن تعيش فيه ، هناك حيث استرعى انتباهها ليس الصراع من أجل الثورة أو الشعب ، ولكن الصراع بين الزعماء من أجل الحكم . وقد صارت يكاترينا منذ العشرينات أحدى أبرز نساء الكرملين ، وكانت صديقة

لناديجدا اليلويفا زوجة ستالين ، وفى اليوم السابق على انتحار ناديجدا (أو قتلها) ، كانت ناديجدا مع يكاترينا وستالين والجميع يقضون سهرتهم فى بيت يكاترينا وفورشيلوف . وكانت يكاترينا تعرف الكثير ، ربما أكثر مما ينبغى لأمراة بهذه الاستقامة أن تعرف ، ولم يكن ستالين يستريح إليها ، ربما أن نظراتها الثاقبة التى تتغلغل فى كل شىء لم تكن تعجبة ، وربما لم يكن يعجبه ثقلها الشديد وبدانتها ، وباختصار كانت يكاترينا تثير انزعاجه وتوتره . فيما بعد عندما تحولت تلك الشابة الحيوية إلى " العمة الحزبية " تماما تحت تأثير العمر والظروف ، فإنها انغلقت على نفسها ، وأخفت طبيعتها وكست نفسها بدرع الاستقامة الحزبية والنقاء الفكرى الكامل ، وكان من الصعب على أحد أن يمسك عليها غلطة ما فكرية . ولكن كيف يمكن لستالين أن يعبر عن نفوره من إمرأة كهذه ؟ . كان المخرج سهلا جدا عدم منحها أى وسام ولو أصغر الأوسمة ، بل وعدم منحها حتى ميدالية صغيرة مقابل كل تلك الاستقامة . وكان ذلك يجعلها تحس المرارة والاهانة المتعمدة .

حدثنى بيوتر فورشيلوف قائلا : " جئنا إلى مدينة روستوف على نهر الدون عام 1922 ، وعشنا فى بيت واحد فى نفس الطابق مع بوديونى . وكانت الشقة التى سكناها كبيرة جدا ، وظل فيها الكثير من الأثاث والأشياء التى تركها اصحاب الشقة الاصليون المهاجرون ، بل انهم تركوا وراءهم بغبغاء صغير أبيض كان يتحدث بالفرنسية قائلا : " هالو .. ها ها ها ، إنه أمر مستحيل " . والواضح أن سيدة مسنة كانت تعيش فى هذه الشقة ، وكانت تهوى الثرثرة بالتليفون . وعندما نزلنا فى الشقة راح كليمنت فورشيلوف أبى يعلم البغبغاء نشيد الأممية الشيوعية . وكان بوديونى وزوجته ناديجدا يترددان علينا يوميا وعندما رأى بوديونى البغبغاء تكدر ، واعتل مزاجه قائلا : " أريد أنا الاخر بغبغاء كهذا " . وفى يوم جاء بوديونى لتناول طعام الغداء معنا ، وبعد أن جلسنا لنأكل ، قال بوديونى بهدؤ ومكر ، وبسعادة حاول اخفاءها : " دعونا نذهب إلى شقتى لدقيقة واحدة " . ونهضنا دون أن نفهم السبب . وهناك رأينا على باب شقته مباشرة بغبغاء أبيض كبير ، وأعور . وما أن رآنا البغبغاء حتى أسمعنا موشحا من أقذر الشتائم الروسية . وراح بوديونى يلوح للبغبغاء بذراعيه فى الهواء مستفزا إياه ، فيعيد علينا مختلف الوان السباب . وركضت يكاترينا وناديجدا إلى شقتنا وهما تصرخان ، أما الرجال فوقعوا على الأرض من شدة الضحك . وفيما بعد تبين أن بعضهم جلب ذلك البغبغاء ـ قاطع الطريق ـ إلى المارشال بوديونى وأهداه إياه ، لكنه كان قبل ذلك لدى بعض البحارة ، وقبل البحارة كان فى خمارة شعبية ، وهى سيرة حياة محترمة كما ترين . وكانت هناك لحظات سعيدة رغم كل شىء " .

أما ناديجدا ايفانوفنا فتتذكر : " عام 1959 كانت يكاترينا تنسحب من الحياة عمليا وتنكمش ، وكانت حالتها الصحية تسؤ يوما بعد يوم ، حتى اجتمع الأطباء وقرروا ضرورة نقلها للمستشفى ، فأصبح كل شىء واضحا . كنت أنا و بيوتر والأطباء نفهم أن تلك هى اللحظات الأخيرة ، وأنه سيتعين على كليمننت

فورشيلوف أن يودع يكاترينا للمرة الاخيرة . وكان هو الاخر قد بدأ يعانى من آثار العمر و الانهاك ، فجلس على طرف سريرها ، وأحست يكاترينا باقتراب النهاية ، فتناولت يده ووضعتها فى راحتها ، وسمعناها وهى تقول له : - " هل تتذكر يا كلمنت كيف غنينا سوية ذات ليلة فى بطرسبورج ؟ أتذكر تلك الأغنية ؟ " . وكان الاثنان يتمتعان بآذان موسيقية للغاية . وشرعت هى تغنى ، وأخذ هو يردد بعدها الشطرة المتكررة من الأغنية : " انظر إلى شعاع المغيب الأرجوانى " .. وكان ذلك بصوتين لشيخين ضعيفين قطعا رحلتهما كلها ولم يبق لهما إلا القليل . ووقف الاطباء و الممرضات وراء باب الغرفة وقد سدوا أفواههم بكفوفهم ، بينما تسيل الدموع على وجناتهم . وانحنى كليمنت فطبع قبلة على جبينها قبل أن ينقلوها للمستشفى ، ولكنها لم تصمد لأكثر من عدة أيام توفت بعدها . لكنهما على أية حال أكملا سوية تلك الأغنية فى تلك الليلة الأخيرة . ولو عاشت يكاترينا شهورا معدودة أخرى ، لاحتفلت مع فورشيلوف بمرور خمسين عاما على زواجهما .

***

(10)

نينا كوخارتشوك ونيكيتا خروتشوف
حياة الملوك وموت البوساء

كانت نينا بتروفنا زوجة خروتشوف سمة من سمات عصر ذوبان الثلوج الخروتشوفى الذى حل بعد عهد طويل من الستالينية المرهقة . لكن المواطنين السوفيت لم يلحظوا حينذاك لا المرأة ولا المعنى ، فقد انشغلوا تماما بمشكلات الحياة اليومية ، وكانوا منشغلين بمناقشة كتاب دودينتسف وحكمته أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . أما العالم الغربى فقد التقط هذا المعنى ، وانبهر بتلك السيدة بعد أن اعتاد طويلا على ستالين وحده ومن حوله الفراغ ، وانطلق الغرب يطلق عليها مختلف الاسماء : " مما نينا " ، و " الأم الروسية " ، " السيدة الطيبة اللطيفة " ، أطيب النساء ، " هل تتحدث بالانجليزية ؟ "،" نعم انها تتكلم بالانجليزية على نحو رائع " ، . إنها تتكلم الانجليزية بشكل متعثر ، ولكن ليست المسألة فى معرفة اللغات " .

وكانت بيتروفنا المرأة السوفيتية النموذجية تبتسم تحت أضواء الكشافات الدولية ابتسامة خفيفة جذابة وهى ترتدى جونلة سوداء وبلوزة بيضاء دون تسريحة خاصة للشعر ، ودون مكياج ، وكانت قامتها علاوة على ذلك مستوية دون أى انحناءات نسائية ، كأنها نموذج للمرأة السوفيتية . ومع ذلك فقد ابتهجوا بها دون حد عندما ظهرت فى أميركا بعد غياب طويل لأمرأة بجوار زعيم سوفيتى ، وتركت نينا انطباعا باهرا بقدرتها على إحياء الاحاديث المتبادلة بعدة كلمات محدودة من الإنجليزية ، وبوجهها البشوش ، مع اقتران ذلك كله بغرابة الأطوار التى عرفت عن خروتشوف الذى يلوح بحذائه فى الأمم المتحدة مهددا بأنه سيلحق بأمريكا ويسبقها بنصف وثبة : خروتشوف الذى كان هو الاخر بشوشا ، ومبتسما ، ولم يلحظ أحد الشفاه المضغوطة لنينا بتروفنا ، ولا الفم المضموم علامة على شخصية جدية ، ربما لأن أميركا رأت ما أرادت أن تراه : امرأة بجوار الزعيم ، وربما لأن هناك مفهوما مثاليا أنه إذا كانت المرأة بالقرب من الحاكم فإنها لابد أن تجعله أرق ، وأكثر لطفا . ونحن الروس فى بلادنا رأينا أيضاً ما كنا نود أن نراه : ذوبان الثلوج .. أما الواقع فلم يتكشف أبدا . ولكن ربما لم يكن هناك شىء خاص ليتكشف؟ ربما لم يكن هناك شىء يستحق الاخفاء؟ ربما كان ما رأيناه هوالحقيقة ؟ فلنجرب إذن أن نتلمس الحقيقة .

لقد ظهرت نينا عدة مرات فى صحفنا واقفة وراء ظهر خروتشوف ، وما أن ظهرت حتى سرت الاشاعات فى البلاد : " لقد : أشاع خروتشوف المحسوبية والمحاباة فى كل مكان " " إن نينا بيتروفنا وماريا بيتروفنا زوجة الروائى

الشهير شولوخوف شقيقتين ، ولهذا صار شولوخوف يحظى بوضع خاص مميز فى عهد نيكيتا خروتشوف " لقد عين خروتشوف ابنه فى المعهد النووى الذى تحيطه الدولة برعاية خاصة ، كما منح ابنه جائزة لينين ، وذلك بإيحاء من نينا بيرتوفنا التى وضعت خروتشوف تحت كعب حذائها ، فهى التى تأمر وتنهى .

لقد دخلت نينا بيتروفنا إلى المربع المحترق الذى تكون خلال عقدين سابقين حول شخصية ستالين ، ولم تدخله صدفة ، أو من الشارع ، فقد كانت زوجة مجربة مختبرة من زوجات الكرملين الاخريات ، وعاشت طبقا لقوانين الكرملين غير المدونة ولكن المعروفة جيدا للجميع فترة تقل عن العشرين عاما بقليل ، وإذا كان زوجها نيكيتا خروتشوف من الزعماء الاصلاحيين فمن الطبيعى الافتراض بأنها هى الاخرى كانت تميل للاصلاحات . ولكن ما الذى ورثته هذه المرأة قبل أن تصل إلى قمة الكرملين ؟ ليس باعتبارها سيدة من سيداته ، لكن باعتبارها السيدة الأولى له ؟ . تصوروا الكرملين الذى نزلت فيه عائلات الزعماء منذ عام 1918 ، حيث عاشوا وأنجبوا أولادهم ، وارتفعوا إلى أعلى وانحدروا إلى أسفل ، وانتحروا ، واعتقلوا بعائلاتهم كاملة هنا حيث تواجدت شقة ستالين ، هنا كان أول ما عرضوه على نينا بيتروفنا هو شقة ستالين التى خصصت لخروتشوف على أساس أنه الرجل الأول فى الدولة . لكن نينا رفضت ذلك الارث رفضا قاطعا وظلت الشقة فارغة مغلقة منذ 1953 حتى 1963 ، لا يدرى أحد ما الذى ينبغى عمله بها . وعندما كان ستالين يعيش فى هذه الشقة كانت محاطة بأجهزة انذار فى كل متر منها وكان بوسع الحراس أن يسمعوا داخلها أدق الاصوات ، وكانت الشقة نفسها مقسومة نصفين ـ نصف كبير لستالين ، ونصف آخر من ثلاث غرف لابنته سفيتلانا . وعندما رفضت نينا بيتروفنا هذا الميراث ، لم يعرف أحد بذلك ، ولم تنشر الصحف شيئا ، لكن قرارها ذلك بدا وكأنه قرار من المكتب السياسى يقضى بفتح ابواب الكرملين ليتردد الشعب على المبنى . وبدأت لأول مرة عملية بناء سريعة لقصور فخمة مخصصة لرجال الكرملين فى تلال لينين الواقعة عند نهر موسكو والتى مازالت قائمة إلى اليوم ، وهى قصور صغيرة من نمط واحد ومن طراز معمارى واحد سمى " الامبير ـ الستالينى " . وكانت كل وسائل الراحة والرفاهية تتناسب مع وضع كل ساكن ، وهو العلم الذى برعت فيه كل أجهزة الإدارة السوفيتية ، وهكذا انتقلت نينا بيتروفنا ونيكيتا خروتشوف وعائلتهما الصغيرة إلى أحسن قصور تلال لينين . لقد تبدلت الأزمنة ، ولكن القاعدة ظلت ثابتة : " كل ينال المقسوم له " .

ذات يوم طلبت " رادا " ابنة نينا من أمها أن تسجل الأم مذكراتها ، خاصة المتعلقة بأحداث السنوات الأخيرة ، ولم تجب نينا بشىء على طلب ابنتها إلا أنه عندما توفيت والدتها فوجئت وهى تتفحص ما تركته من أوراق ومستندات بمذكرات نينا بيتروفنا ، التى دونتها بخط يدها ، وهى الشهادة الوحيدة المكتوبة لزوجة من زوجات الكرملين . وتروى نينا بيتروفنا سيرة حياتها فتقول : " ولدت يوم 14 أبريل بقرية فاسيلييف فى مقاطعة " خولم " بشرق بولندا الذى كان جزءا من روسيا حينذاك ، وكان غالبية سكان المقاطعة من الأوكرانين ويتحدثون

بالاوكرانية ، أما الادارة فى القرى وهيئات السلطة الأعلى فكانت روسية . وكان التعليم يجرى فى المدارس الابتدائية والعليا باللغة الروسية ، مع أن أفراد العائلات كانوا يتحدثون بالاوكرانية داخل بيوتهم وفيما بينهم . والدتى هى يكاترينا جريجوريفنا كوخارتشوك تزوجت وهى فى ربيعها السادس عشر من والدى بيتر كوخارتشوك الذى كان ينحدر من أسرة أشد فقرا من أسرة أمى . وكانت قريتنا فقيرة للغاية ، وكان الفلاحون يعملون لدى ملاك الأراضى من مطلع الفجر حتى غروب الشمس ، النساء مقابل عشرة كوبيكات يوميا ، والرجال مقابل عشرين كوبيكا . وقد شارك والدى فى حرب اليابان عام 1904 ، فعشنا خلال فترة خدمته العسكرية مع جدتى ، وكنا جميعا نأكل من قصعة طعام واحدة ، وكان الكبار يلتفون حول القصعة وهم يحملون الأطفال الصغار على أياديهم ، أما نحن متوسطى العمر فكان علينا أن نجتهد لكى نصل إلى الطعام عبر أكتاف الكبار ، فإذا تصادف لأحد منا أن دلق شيئا من الحساء على الأرض ، كان أحد الكبار ، يضربنا بالملعقة على جبهتنا فورا ، لكى ننتبه فلا نكرر ذلك . وعام 1912 ، وضع والدى كيس من البطاطا وقطعة لحم على عربته " الكارو " ، ورفعنى فأجلسنى عليها ، وانطلق بى الى مدينة " لوبلين " حيث كان يعيش أخوه " كوندراتى كوخارتشوك " ، وطلب منه أن يلحقنى بالمدرسة الاعدادية لديهم . وعام 1914 كنت فى زيارة لأهلى فى قريتنا فاسيلييف وكانت الحرب تلملم ذيولها ، وإن لم تكن قد انتهت بعد . وفى تلك الفترة هاجمت القرية كتيبة من الجنود النمساويين ، فأخذوا ينهبون ويسرقون كل ما يقع عليه بصرهم ، وكانوا يجرجرون الفتيات وراءهم بالقوة ، وأخفتنى أمى وراء جدار الفرن حتى اقتحم الجنود بيتنا ، فقالت لهم أمى أننى مريضة بالتيفود ، فهرولوا هاربين خوفا من العدوى . وسرعان ما تبدلت الاوضاع ، فتراجع النمساويون ، ووصلت القوات الروسية ، وطالبونا بالجلاء عن القرية فترة الحرب ، الى أين ، وكيف ؟ لم يكن أحد يدرى . وحملنا معنا ما استطعنا حمله ، وفى الطريق التقينا بوالدى الذى كان يخدم فى أحدى الكتائب العسكرية . وطلب أبى من قائد الكتيبة أن يسمح لنا بالبقاء معه ، فوافق القائد ، وصارت أمى تعمل طاهية تعد الطعام للجنود . وكان عمرى حينذاك أربعة عشر عاما لا أكثر . وذات يوم أشفق قائد الكتيبة على ، فاستدعى والدى وقال له : " اليك خطاب توصية للاسقف " يفلوجى خذ ابنتك والخطاب الى كييف ، ليلحقها الاسقف بأحدى المدارس . وكان ذلك الاسقف هو نفسه زعيم الكنيسة الارثوذكسية فى المنفى بعد ثورة أكتوبر فيما بعد . وساعدنى الاسقف على الالتحاق بمدرسة فى أوديسا ، وهناك عشت فى مسكن طلابى مع التلاميذ الفقراء الاخرين على حساب التبرعات التى ترد للكنيسة حتى عام 1919 . وعندما انهيت تعليمى ، صرت أشتغل فى نفس تلك المدرسة فى قسم ادارى أستنسخ الاوراق ، وأرتب الارشيف .

وفيما بعد ، عام 1920 التحقت بحزب البلاشفة ، وكان يخوض نضالا ضاريا فى أوكرانيا حينذاك لطرد الحرس الابيض المعادى للثورة . وفى يونيه من نفس العام بدأت تعبئة الشيوعيين لتحرير غرب أوكرانيا من بولندا ، ووجدت نفسى فى الجبهة البولندية ، أخذونى اليها نظرا لمعرفتى باللغة الاوكرانية و المناطق

المحلية . وكنت أطوف بالقرى والمقاطعات أعرف الناس بالنظام الجديد وما يسعى لتحقيقه . وعندما تأسست اللجنة المركزية للحزب الشيوعى بغرب أوكرانيا ، عينت رئيسة لقسم العمل النسائى . وفيما بعد اضطررنا كما هو معروف للانسحاب من بولندا ، واتجهت الى موسكو حيث شرعت أدرس فى دورات تعليمية من ستة أشهر لرفع كفاءتى . وصيف 1921 نقلت للعمل إلى مقاطعة الدونباس لتدريس مادة تاريخ الحركة السياسية الثورية فى الدول الغربية وفى تلك الفترة كان لينين قد تراجع عن " الشيوعية العسكرية " ، لجأ إلى خطة اقتصادية جديدة (نيب) تعتمد على قوانين السوق والاستثمارات والعمل الشخصى ، وظهرت السوق لدينا ، وظهرت معها مختلف أنواع السلع ، ولكننى كنت أنا وزميلتان مدرستان نتجه إلى السوق لمجرد شراء الخبز لا أكثر ، وهناك أصابتنا عدوى التيفود ، فتوفت أحدى زميلاتى نتيجة للمرض .

فلنقطع سيل مذكرات نينا بيتروفنا ، لنلقى نظرة عليها .. وسنجد أننا أمام نموذج فريد حقا لأمرأة تثير الاهتمام . إذ تبدو نينا بيتروفنا وكأنها ورقة سقطت من على غصنها ، اقتطعت من وسط ظروفها ، صبية عادية أشفق عليها قائد عسكرى بالصدفة ، فأرسلها إلى أحد كبار رجال الكنيسة الذى ساعدها بدوره على استكمال تعليمها ، ويبدو وكأن الصدفة قد صنعت الكثير فى حياة تلك المرأة ، ولكنها من ناحية أخرى كانت تستخلص من الظروف كل ما يمكنها أن تستخلصه لصالحها . وبعد ذلك كانت تواصل رحلتها منطلقة إلى الأمام ، دون أن تلتفت وراءها كما يقولون . ولم يكن عبثا أن ساعدتها سيرافيما جونر ، إذ لمست فيها قدرة ما ، كما ساعدت من قبل يكاترينا زوجة فورشيلوف مارشال الاتحاد السوفيتى فى مطلع حياتها . ووجدت نينا كوخارتشوك نفسها داخل المشط الحزبى ، الذى توزعت فيه الطرق المستقيمة منفتحة أمامها .

وتمضى نينا كوخارتشوك لتقص كيف تعرفت إلى نيكيتا خروتشوف ، وكيف قامت الصدفة بدورها فى الرحلة التى قادتها إلى الكرملين : فى خريف 1922 وجهتنى الدولة إلى منطقة دونيتسك بأوكرانيا لأقوم بتدريس مادة الاقتصاد السياسى فى المدرسة الحزبية . هناك التقيت لأول مرة بنيكيتا خروتشوف ، وكان يواصل تعليمه فى كليه العمال بنفس المدينة . وشيئا فشيئا توثقت علاقتنا ، وبعد عام واحد سافرت إلى منطقة " روتشكينكوفكا " بتكليف من العمل ، وهناك تعرفت إلى أهل خروتشوف ووالديه ، وطفليه يوليا وليونيد من زوجته الأولى التى ماتت متأثرة بحمى التيفود عام 1918 . وبعد ذلك بعام فى 1924 قررنا أن نرتبط ، فعقدنا قراننا ونيكيتا . وفى يناير من نفس العام توفى لينين ، فسافر خروتشوف ضمن وفد مدينة دونيتسك للمشاركة فى تشييع الجنازة . وعام 1926 أصبح خروتشوف مسئولا عن قسم التنظيم بلجنة الحزب فى مقاطعة دونيتسك ، أم أنا فسافرت فى ذلك العام إلى موسكو لألتحق بالأكاديمية التى حملت اسم " ناديجدا كروبسكايا " زوجة لينين ، وواصلت دراستى هناك عاما كاملا ، كان خروتشوف خلاله قد صار رئيسا للقسم التنظيمى ولكن فى العاصمة الاوكرانية كييف ، وبعد ذلك اتجهت إليه ، وهناك ولدت ابنتى " رادا " عام 1929 . وكان خروتشوف

نشيطا وبارزا ، ولهذا سرعان ما استدعوه إلى موسكو ، وعام 1935 صار سكرتيرا أول لمنظمة الحزب على نطاق عاصمة الاتحاد السوفيتى كله موسكو . وكانت تلك أولى الخطوات الكبيرة نحو المناصب التى تولاها فيما بعد ، وكان أهمها تزعمه للحزب الاوكرانى عام 1938 . وفى كييف ظللنا حتى بداية الحرب العالمية الثانية عام 1941 .

مرة أخرى أستميح القارىء عذرا لأقطع مذكرات نينا كوخارتشوك ، لأنبه القارىء إلى أن المذكرات ـ التى كتبتها نينا بناء على طلب ابنتها رادا ، ولأجلها ، تخلو من أية محاولة لادراك أحداث العصر الكبرى ، والصراعات السياسية داخل الكرملين ، أو تفاصيل المعيشة داخله ، أو وصف معاصريها من كبار القادة الذين رسموا ملامح تلك السنوات . وذلك لأن حياة الكرملين التى ارتبطت بمراكز توزيع الخيرات ووسائل الراحة والامتيازات الخاصة ، كانت دائما حياة سرية ، وكان لابد أن تبقى سرية إلى الأبد . وعلى الرغم من أن نينا دونت مذكراتها لأجل ابنتها ، إلا أنها لم تستطع أن تتخلص من الطقوس السرية ، والممنوعات ، فبدا وكأنها دونت مذكراتها للدولة والحزب ، وليس لكى تقرأها ابنتها فيما بعد ، وحدها . ولنواصل قراءة نينا كوخارتشوك :

" عام 1938 ، ذات يوم ، التقى ستالين وكبار قادة الدولة مع زوجاتهم فى المنزل الصيفى لمولوتوف وزير الخارجية (بعد حملات التصفية السياسية والجسدية لمعارضى ستالين ، وكان ستالين قد عين الكثيرين من القادة الجدد فأراد بذلك اللقاء الودى أن يتعرف شخصيا إلى الكوادر الجديدة ، وأن يتعرفوا هم أيضا إلى بعضهم البعض . وكانت زوجة ستانيسلاف كوسيور ـ سكرتير الحزب الاوكرانى ـ جالسة فى مواجهتى ، وكان ستالين لتوه قد قرر نقله إلى الحكومة معفيا إياه من زعامة الحزب الاوكرانى ، وكان قد أصبح معروفا للجميع أن خروتشوف سيحل محله . وسألت زوجته : " ما هى المواعين التى يتعين على أن أخذها معى إلى بيت السكرتير العام للحزب الاوكرانى حينما أنتقل إليه . فأدهشها سؤالى أيما دهشة ، وقالت لى : " لا تأخذى شيئا ، كل ما تحتاجينه موجود هناك . " . ولم أكن على معرفة ببيوت الزعماء من قبل . وعندما انتقلت مع خروتشوف إلى كييف ، أخذنا نعيش على حساب الحكومة ، الأثاث وأدوات المطبخ ،وحتى مستلزمات غرف النوم . وكنا ندفع فقط مقابل الطعام مرة واحدة فى الشهر . فى تلك الامسية كان كل شىء جديدا على ، ألقى ستالين كلمة مقتضبة ثم شرع القادة الجدد يشرحون كيف سيقبلون على أعمالهم الجديدة ، وحينما حل الدور على زوجات القادة ، تحدثت أحداهن عن أبحاثها العلمية ، لكن ذلك الحديث قوبل بعدم رضاء مهذب من الزوجات الاخريات . بينما قوبل حديث امرأة أخرى بالتصفيق الحاد ، لأنها قالت أنها ستقصر كل نشاطها على تهيئة الجو لكى يعمل زوجها على أفضل نحو " .

إن ذلك المشهد الذى وصفته كروخاتشوك جدير بالملاحظة ، لأن ستالين المنتصر فى كل مكان وفى كل شىء ، كان قد قرر ـ وهو الذى عانى فى حياته الشخصية من زوجته العنيدة المستقلة ـ أن يضع المرأة فى مكانها ، لقد قامت المرأة بما يكفى من

دور فى الثورة وبناء الاشتراكية ، والان حلت أزمنة أخرى ، اصبح على المرأة فيها أن تزداد التصاقا بالبيت ، وبالأطفال ، وبالمطبخ وأمسى على زوجات الكرملين أن يصبحن زوجات فقط ، ولا أكثر . ولقد اختفى نموذج " لاريسا رايسنر " ، و " كروبسكايا " ، و " أينيس أرماند " ، وما من حاجة لنساء أخريات من هذا الطراز . وحتى نينا بيتروفنا نفسها ، بسيرة حياتها تلك تعين عليها بصحبة خروتشوف فى أوكرانيا أن تصبح بالتدريج مجرد زوجة لسكرتير الحزب الاوكرانى ، حيث يصبح الاولاد والمطبخ أهم القضايا التى تشغل المرأة . وجدير بالملاحظة أن مذكرات نينا بتروفنا تضمنت مقطعا كأنما تبرر به ذلك التحول قائلة : " كل ما قمت به بعد أن صار خروتشوف زعيما للحزب فى كييف كان عبارة عن مهمات متفرقة بتكليف من الحزب ، وكنت ألقى بعض المحاضرات هنا وهناك ، فقد كان أطفالى الثلاثة صغارا وبحاجة للعناية " .

وها أنا أجلس إلى ابنة خروتشوف " رادا " فى منزلها الصيفى الواقع بأحدى ضواحى مدينة موسكو ، تحدثنى عن عائلتها ، وأبيها ، عن العالم المجهول لوالدتها لنينا بيتروفنا فتقول : " كانت ماما إنسانة عابسة متجهمة وصارمة للغاية ، ولم تكن تحكى شيئا أبدا عن نفسها أو حياتها ولقد أصابتنى الدهشة عندما عثرت على مذكراتها ، ولم أكن أتصور أنها ستعمل بنصيحتى . ولكنها لم تقص كل شيء ، على سبيل المثال كان أخى ليونيد من أبى طيارا عسكريا وفى الحرب العالمية الثانية شارك فى الطلعات الجويةعلى ألمانيا ، وكان أبى خروتشوف حينذاك فى جبهة القتال عضوا بالمجلس العسكرى ، وفى تلك الفترة أصيب أخى ليونيد بجراح شديدة ، فنقلوه للمستشفى ، إلا أنه أطلق النار تحت تأثير الخمر على أحد المرضى فقتله ، فحاكموه ، وقرروا عقابا له إرساله إلى الصفوف الأمامية من الجبهة ، ولكنه لم يعد من هناك ، فقد قتل فى الحرب . ولم يكن لدى أبى وقت على الاطلاق ليعتنى بنا ، كان ذلك منذ الصغر فقد اعتبر أن ماما هى المسئولة عن البيت ، وأن عليه أن يتفرغ لأعمال الدولة . وكان أبى مغرما بى ، فإذا وصل إلى البيت ، أشاع جوا من المرح ، وكان يقرأ لنا القصائد ، ويغنى لنا مختلف الاغنيات الشعبية ، وكان يصطحبنى للتزلج على الجليد معه . والان يسألنى أطفالى : هل يعقل أن الجد خروتشوف لم يكن يقول شيئا عن اسرار الدولة فى البيت ؟ . نعم . لم يكن أحد ينبس بكلمة عن أسرار الحكم داخل البيت . و" سألت رادا " عن حقيقة تلك الاشاعة التى راجت حينذاك بأن يكاترينا فورتسوفا وزيرة الثقافة السوفيتية كانت عشيقة لخروتشوف . وكانت يكاترينا فى حينه قد استرعت انتباه الجميع لأنها كانت المرأة الوحيدة فى الحكم عهد خروتشوف ، وكانت امرأة رشيقة ، وجذابة ، وإن قالوا أنها كانت تتعاطى الفودكا بصفة منتظمة . وفيما بعد عندما أطاح بريجنيف بخروتشوف فوجيء الجميع بأن يكاترينا قامت بالتصويت مع إقالة خروتشوف . إلا أن " رادا " نفت لى تماما قصة الغرام الذى ربط خروتشوف بيكاترينا . فانتقلت أسألها عن عزل خروتشوف ، وكيف استقبلت نينا بيتروفنا ذلك الحدث ؟ . وقالت " رادا " : ـ " كان ذلك فى أكتوبر 1964 ، وكانت أمى تعالج فى إحدى المصحات بتشيكوسلوفاكيا ، وكانت تعالج معها فى نفس الوقت و بنفس المصح زوجة

بريجنيف فيكتوريا بتروفنا . وعندما عرفت أمى بعزل خروتشوف لم تفهم شيئا ، أو لعلها لم تستطع أن تستوعب تلك الحقيقة ، فمضت - على حد قولها فيما بعد - تقول لزوجة بريجنيف : " منذ الان لن أدعوك أنا إلى حفلات الاستقبال الرسمية فى الكرملين ، ولكن أنت التى ستدعيننى من الان فصاعدا " بدا لأمى أن التغييرات فى الحكم هى مجرد تبديلات طبيعية للديكور . وأسأل : " ولكن فيما بعد ، عندما عادت من تشيكوسلوفاكيا ، وأدركت حقيقة ما حدث ، كيف كان رد فعلها ؟ " . تقول رادا ابنة خروتشوف : " لقد مرضت واعتلت صحتها ، وظلت لا تغادر القصر فى تلال لينين فترة طويلة ، بينما كانوا كل يوم ينبهون عليها بضرورة اخلاء القصر ، أما هى فكأنهالم تكن تسمع ما يقال لها ، كانت صدمتها كبيرة ، وفى السنوات الأخيرة من عمرها كانت تعيش فى منزل صيفى متواضع فى " جوكافا " بضواحى موسكو فيما يسمى ببلدة الأرامل ، وكان خروتشوف قد توفى . فكانت تكتفى باغلاق باب البيت عليها بعصا طويلة تضعها وراء الباب . وأسأل " رادا " : وكيف كان موقف أصدقائكم ومعارفكم منكم بعد عزل والدك ؟ " تقول رادا " : - " كان موقفهم الموقف المألوف فى تلك الحالات ، فقد اختفى من حولنا كل معارفنا السابقين من الكرملين وفى نفس اليوم الذى عزل فيه أبى خروتشوف ، التقيت فى الشارع بجالينا ساتيوكوفا زوجة رئيس تحرير البرافدا - الذى كان أقرب معاونى والدى - ولم تكن جالينا قد عرفت بعد بعزل خروتشوف ، فكانت رقيقة للغاية معى ، وقالت لى : " اننا للأسف لانلتقى إلا نادرا ، لابد من أن نجتمع ، أو نذهب سوية لنستريح فى مكان ما ، وسأتلفن اليوم لك لنتفق على كل شىء " . ولكنى لم أرها بعد ذلك أبدا ، ولم أسمع حتى صوتها . أما الفنانون والمثقفون فكانوا يتصلون بنا ، ويحافظون على علاقاتهم بنا . وسرعان ما اعتادت أمى ، ونحن جميعا على الوحدة ، وعندما مرضت أمى ذات يوم ، ورقدت فى المستشفى ، كانت الممرضات يتعمدن تجريحها بمختلف العبارات الفظة . ولم تعد أمى ترمى الأشياء القديمة من ملابس أو أثاث ، كانت تحس أن عصرها قد انتهى ، وأن أياما صعبة مازالت تنتظرنا . وحينما صدرت مذكرات خروتشوف فى الغرب عام 1974 بعد موت خروتشوف بثلاث سنوات ، استدعت المخابرات أخى الأصغر سيرجى ، وطلبوا منه أن يوقع على وثيقة بأن المذكرات التى صدرت مزيفة . ودفعوا إليه بخطاب معد مسبقا بهذا المعنى . لكن سيرجى قال أنه لابد له أن يتشاور مع ماما لأن موضوعا كهذا يخص الاسرة كلها وسألته ماما مساء فى البيت : " هل قرأت هذه المذكرات ؟ " ، فقال لها : " كلا " فقالت : " كيف إذن يمكنك الحكم عليها بأنها مذكرات ملفقة ؟ . لا توقع الورقة " . اضطر أخى للذهاب ثانية إلى المخابرات ولكنه كان قد أعد لهم ردا مفحما : " لقد رفضت أمى التوقيع " . ولم يكن أحد يعلم كيف تسربت تلك المذكرات إلى الغرب . وإن كان الجزء الأول من تلك المذكرات قد نشر فى عهد حكم خروتشوف .

إنها رحلة غنية تلك التى قطعتها نينا بيتروفنا ، من قريتها الفقيرة حيث كان عليها أن تتلقى العقاب إذا أسقطت على الأرض قليلا من الحساء ، إنتهاء بالكرملين ، ثم هبوطا مرة أخرى إلى القاع . وعامة فإن قادة الكرملين وزوجاتهم

عاشوا عيشة الملوك ، وماتوا موت البؤساء ، إذ لم يكن لهم أى شىء يخصهم ، ولم يكن مسموحا لهم بأن يمتلكوا شيئا ، أى شىء .

***

فيكتوريا : تعنى الانتصار
زوجة بريجنييف والأسرة التى دمرها الفساد

فى أحد الأيام الأخيرة من أغسطس عام 1991 سرحت بأفكارى بعيدا عن الحاضر الذى أعيش فيه إلى الماضى ، إلى العالم الذى عاش فيه واستراح زعيم دولتنا ليونيد ايلتش بريجنيف . وتذكرت كيف كنت جالسة فى ضيافة مجموعة من أهالى مدينة " دنيبروبتروفسك " الذين انتقلوا إلى موسكو ، وحدثتنى امرأة شقراء ممتلئة من عائلة بريجنيف فقالت لى : " لقد ارتبطت فيكتوريا زوجة بريجنيف به على مرأى من أعين العائلة كلها ، كان هو مجرد فتى من أبناء الريف ، أما هى فمن عائلة يهودية مثقفة ، وكان أبوها مدرس فى معهد للاقتصاد واسمه أولشيفسكى ، واحتنضت أسرة فكتوريا الشاب وتولته بعنايتها بل وجعلته يستكمل تعليمه ، وباختصار فعلت الأسرة كل ما فى وسعها لكى يكون بريجنيف جاهزا للترقى ، والصعود إلى أعلى . وكان بريجنيف حينذاك شابا وسيما ، طويل القامة ، رشيقا ، وكان أيضا مرحا . وكانت النساء تعجبن به ، وكان يخون فكتوريا منذ اليوم الأول لزواجهما ، أما هى ـ وكانت على علم بمغامراته النسائية ـ فاتخذت موقفا متعقلا ، فكانت تغض النظر عما يفعله ، وكانت ترخى له الحبل ليركض بعيدا ، ثم تشده إليها شيئا فشيئا . " ولكن لماذا ألجأ إلى روايات الاخرين عن فكتوريا زوجة بريجنيف ؟ إنها مازالت حية إلى الان ، وتعيش فى أحد أهم شوارع موسكو : شارع كوتوزف " بمنزل متعدد الطوابق ، علقت على واجهته لوحة صغيرة كتب عليها : " هنا عاش ليونيد بريجنيف حتى عام .. " لكن اللوحة لم تصمد طويلا ، فقد نزعها مجهولون من مكانها ، ولم يعتنى أحد بعد ذلك بوضع لوحة أخرى مكانها . وقد وافقت فيكتوريا برجينيفا على استقبالى ، رغم أنها لاتستقبل أحد ، ولا تغادر بيتها إلى أى مكان زمن طويل ، ربما لأنها بلغت الثالثة والثمانين من عمرها ، وربما تأثرا من الحملة التى شنت على بريجنيف مؤخرا والملاحقات التى تعرضت لها جالينا ابنته ، وتشوربانوف صهره . وقبل موت بريجنيف بمدة كانت الشائعات المختلفة تنطلق دون توقف حول جالينا ، وحول ولعها بالألماس والمجوهرات الثمينة . وكنت أسأل نفسى كلما سمعت شائعة كهذه : " ومن أين لها بالأموال الطائلة لشراء تلك المجوهرات ؟ " . وقيل حينذاك أن الالماسات الغالية جدا التى كانت جالينا تتزين بها جاءتها هدايا من المحيطين بها . ولكن هل كانت تلك هدايا فقط ؟ أم أنه كانت هناك قنوات وسبل أخرى للحصول على تلك الثروات الهائلة ؟ . وحينذاك صرح لى جارى وكان رئيس ادارة متاجر المجوهرات عهد بريجنيف بقوله : إن متاجرنا تمتلأ فى أحيان كثيرة بمجوهرات مذهلة ، قديمة وحديثة ، تأتى

إلينا بعد مصادرتها من المجرمين واللصوص ، ولكنها لا تعرض للبيع ، لأن مجموعة خاصة من صفوة السيدات يقمن بشرائها قبل عرضها . علما بأن أسعار هذه التحف منخفضة جدا .. أسعار حكومية ، وعلى سبيل المثال فقد بعنا بالامس دبوسا يغطيه ألماس نادر ، قديم ، فقط بمائة و خمسين روبلا . أى مجانا تقريبا .. و لا يسعنا أن نفعل شيئا فى هذه الحالات لأن الأوامر تأتى من أعلى ، بالهاتف . " وحينما سألت جارى : " ولكن من هن أولئك السيدات ؟ " ضحك قائلا : " يمكنك أن تخمنى بنفسك " . وكان معروفا عن جالينا جنونها بالمجوهرات ، حتى شاعت قصتها فى جيورجيا ، وحينما سافرت إلى مدينة " زوجديدى " هناك ، وزارت المتحف القومى الذى يعرض فيه تاج الملكة تامارا فى وسط قاعة المتحف من وراء حاجز سميك وعلى مخمل ناعم . وانتشرت حينذاك عام 1975 قصة اعجاب جالينا بالتاج التاريخي وانبهارها بالاحجار الكريمة التى تزينه إلى حد أنها أرادت أن تحصل عليه كهدية من أهالى المدينة الذين يفترض أنهم ممتنون لزيارتها . لكن ادارة المتحف أصيبت بالغم من جراء تلميحات جالينا ، وقررت الادارة لتعفى نفسها من المسئولية الاتصال بادوارد شفيرنادذه السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى جيورجيا حينذاك وابلاغه بالموضوع . فقام شفيرنادذه برفع سماعة الهاتف الحكومى ، واتصل بدوره ببريجنيف قائلا له : " إن جيورجيا وشعبها يكنان كل الاحترام لجالينا بريجنيفا ، ولكننا لا نستطيع أن نهديها تاج الملكة تامارا الذى يعد من ثروات الشعب القومية " فرد عليه بريجنيف باقتضاب : " اطردوها لتعود إلى بيتها بموسكو" . وكان بريجنيف يشكو لزملائه فى الحزب والدولة خاصة فى السنوات الاخيرة قائلا : " إن العالم كله يحترمونى ، أما أفراد أسرتى فإنهم لا يحترموننى ، ولا يجلبون لى إلا العار " . ربما كانت أحاديثه تلك بسبب ما جرى أواخر عام 1981 ، حين أقامت الدولة احتفالا فى سيرك موسكو ، فحضرته جالينا وصديقتها زوجة شيلوكوف وزير الداخلية وهما تتلألأن بعقود الألماس التى تبهر الأبصار . لكن الألماسات التى علقتها على جيدها " ايرينا بوجويموفا " مروضة النمور المشهورة كانت أفضل بكثير . وعلى أية حال فلم تنقض عدة أيام على ذلك الاحتفال حتى سرقت ـ بشكل غير معروف ـ ألماسات مروضة النمور ، وقاد البحث رجال التحقيق إلى بوريس بوياتسى عشيق جالينا الذى أراد أن يسعد حبيبته بتلك الهدية ، وفى تلك الفترة شملت موجة الاعتقالات مجموعة كبيرة من أصدقاء جالينا ، وكفت هى نفسها عن الظهور فى المجتمعات والحفلات ، ثم اعتقل يورى سكوكوف مدير محل " يليسيفسكى " للمجوهرات ، وصودرت لديه مجوهرات وذهب ومليون روبل ، وكان ذلك فى تلك الأيام مبلغا خياليا . وبعد موت بريجنيف فى نوفمبر 1982 ، كان الناس يمعنون النظر إلى شاشات التليفزيون وهى تنقل تشييع جنازة بريجنيف ويقولون لبعضهم البعض : " هل رأيت كيف دنا أندروبوف من فيكتوريا زوجة بريجنيف وعانقها معزيا ، بينما عامل جالينا بجفاء واضح ؟ وخلال الخمسة عشر شهرا التى حكم فيها أندروبوف كانت عمليات التفتيش تجرى على قدم وساق فى كل مكان ، ولم تعد جالينا تظهر نهائيا أمام الناس ، ثم صدر حكم بالإعدام على سوكولوف مدير محل المجوهرات ثم صدر حكم آخر على عشيق

جالينا بوريس بورياتسى بالسجن لمدة خمس سنوات ، ولكنه توفى فى السجن فجأة وعلى نحو غير مفهوم . وعزل أندروبوف وزير الداخلية " شيلوكوف " من منصبه ، وفوجىء الجميع بانتحار زوجته صديقة جالينا . وبعد موت أندروبوف ، فى عهد شيرنينكو القصير ، خف التوتر الذى أحاط بجالينا وعائلة بريجنيف شيئا ما ،وصارت من جديد تظهر فى بعض الأماكن ، وفى حفل استقبال بمناسبة عيد المرأة العالمى ظهرت جالينا ولكنها كانت ترتدى بذلة صارمة ، لا يزينها شىء سوى وسام لينين الذى نالته جالينا من يدى أندريه جروميكو عام 1978 بمناسبة عيد ميلادها الخمسين . ومع ذلك كانت عمليات التفتيش والتحقيق فى قصص الفساد المرتبطة بجالينا مستمرة ، وأقيمت دعوى جنائية ضد شيلوكوف وزير الداخلية المعزول ، ففضل الانتحار هو الاخر كزوجته مطلقا الرصاص على نفسه .
وعندما وصل جورباتشوف إلى السلطة تم اعتقال يورى تشوربانوف زوج جالينا ، واضطر ابن بريجنيف يورى للتقاعد مبكرا بعد أن كان نائبا لوزير التجارة ومرشحا للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . ولم يسفر تفتيش شقة جالينا عن شىء ، ولم يعثر أحد على الألماسات التى فقدتها مروضة النمور ، وقالت جالينا للمفتشين وكانت منتشية من الخمر كعادتها حينذاك : سوف تتذكرون فيما بعد والدى وعهده ، وكيف عشتم أثناء حياته .

ربما يكون العمر هو الذى دفع فيكتوريا زوجته إلى عدم مغادرتها البيت ، وربما تكون تلك القصص التى تناولتها الصحافة فيما بعد علنا دون مجاملة لأحد ، على أية حال فقد قررت فيكتوريا أن تستقبلنى ، لكن لودميلا زوجة ابنها يورى هى التى فتحت لى الباب ورحبت بى ، ثم تركتنى وحدى لبعض الوقت فى غرفة استقبال واسعة معزولة عن بقية غرف البيت بعمودين من الطراظ الأغريقى التصقا بالجدار . ورحت أتطلع حولى فرأيت أمامى مباشرة بابا يؤدى لغرفة أخرى كبيرة تطل على شارع " كوتوزف " الصاخب ، ومددت بصرى إلى هناك فشاهدت صورتين لبرجنيف بريشة أحد الفنانين رسمها بأسوب البلاط . نعم لقد انتشرت الشائعات المختلفة عن تلك الأسرة قد يكفيها مجلد ضخم إذا جمعت ، وتصب كلها فى السكر ، والعربدة ، والمحسوبية ، واستغلال السلطات . لكن تلك الشائعات كانت تتدفق دون أن تمس فيكتوريا الزوجة . وهاهى فيكتوريا تظهر أمامى وتدلف إلى الغرفة ببطء وقد استندت إلى ذراع الخادمة " سفيتلانا " ، ووقفت أمامى فى رداء أخضر قاتم ، بوجه أملس ، وشعر أشيب جمعته وراء رأسها فى حزمه واحدة . وكانت عيناها زرقاوين ، غطتهما غشاوة العمى ، دامعتين قليلا ولكنها كانت كلها هادئة منفتحة لملاقاة ضيفتها التى لا تراها . ورحبت بى ثم جلست ، وأنا أفكر : هل من المعقول أن أزعج امرأة فى هذه السن بكل ما لدى من أسئلة سخيفة عن حياة العربدة والسكر التى عاشها زوجها ؟ أم بأسئلتى عن السكر الذى لم يكن اولادها يفيقون منه ؟ أم عن اختلاسات صهرها ؟ " .

وخطر لى أننى أريد أن أعرف مالا أعرفه عن هذه المرأة ، أبسط الأشياء لا يعرفها أحد مع ذلك : من هى ؟ ابنة من ؟ وأين ولدت ؟ وكيف تعرفت إلى ليونيد برجينيف ؟ . وشرعت فيكتوريا تجيب على أسئلتى بصوت منخفض وهادىء ،

فقالت : " لقد ولدت فى مدينة كورسك بروسيا وكان والدى وهو بيوتر دينيسوف سائق قطار بسيط " . وقاطعتها : " لكنى سمعت أن والدك هو أولشيفسكى وأنه كان مدرسا بأحد المعاهد ؟ " ودحضت فيكتوريا تلك المعلومات بهدوء قائلة : " كلا هذه ليست حقيقة . كان فى عائلتنا خمسة أطفال ، ولم تكن أمى تعمل حينذاك . وفى سنوات عمرى الأولى أنهيت المدرسة ثم انتسبت للدراسة فى معهد طب متوسط ، وهناك تعرفت إلى بريجنيف فى حفلة رقص . فى البداية دعا صديقتى للرقص معه فرفضت ، فسألنى : " وأنت يا فكتوريا .. ألا ترقصين معى ؟ " . فقمت وتقدمته إلى مكان الرقص . وفى اليوم التالى صار من جديد يدعو صديقتى للرقص فرفضت للمرة الثانية ، وقبلت أنا . و " قاطعتها : " ولكن لماذا رفضت صديقتك ؟ " . وقالت : " لم يكن بريجينيف يجيد الرقص ، وقد علمته أنا ذلك . وصار يرافقنى بعد ذلك إلى باب البيت مودعا ، وأنا أتأمله مفكرة أنه رجل جاد ويدرس فى المعهد بشكل جيد فما عيبه ؟ " وأسألها : وهل كان وسيما حقا كما يقولون ؟ " . وتقول : " لا أستطيع الادعاء انه كان وسيما ، فقد كان شعره مفروقا على نحو مائل ، مما لم يكن يناسب وجهه أبداً ، ولكنى فيما بعد ابتكرت له تسريحه الشعر التى لازمته بعد ذلك حتى النهاية ، وتعارفنا عام 1925 ، وتزوجنا بعدها بثلاث سنوات . وكان قد أنهى دراسته فى معهد لتنظيم استغلال الآراضى بنفس المدينة " كورسك " ، ثم أصبح يقوم بعمليات مسح الآراضى الزراعية ، وبعد ذلك درس فى معهد الميتالورجيا ، ثم دخل العمل الحزبى ، ثم الحرب ضد الألمان ، وفيما بعد صار سكرتيرا أول للجنة الحزبية بمقاطعة " دنيبروفسك " بأوكرانيا من سنة 47 حتى 1950 ، وبعد ذلك عمل برينجنيف فى مولدافيا ثم فى كازاخستان وأخيرا فى موسكو . ومن الصعب القول أننى كنت أعمل معه فى تلك الفترة ، فقد اشتغلت فى البداية كقابلة (مولدة) ولكن لمدة بسيطة ، ثم ولدت ابنتى جالينا ، ومن بعدها يورى ، وكان برجينيف لا يكاد تقريبا يرى الطفلين ، فقد كان أغلب وقته يضيع فى العمل حتى فى أيام الاحاد التى هى أجازة رسمية فى كل مكان ، وكان يحدث كثيرا أن نجلس إلى المائدة ، كل أفراد العائلة ، وكان يحب لقاءنا حول مائدة الطعام ، وما أن نبدأ فى تناول الطعام حتى يدق جرس الهاتف ، وإذا بهم يستدعونه لحل مشكلة ما ، أو قضية ملحة . ولم أكن ربة بيت بالمعنى المعروف فى بداية حياتى الزوجية ، ولم أكن أجيد الطهى ، لكنى قررت وأردت أن أتقنه . ولعلنى كنت موهوبة فى هذا المجال ، لأن ليونيد بريجنيف والطفلين بل وجميع من كان يتردد علينا كان يمتدح ما أعده من طعام . وكان بريجنيف يفضل حساء البورش الاوكرانى ، وهذا النوع من الحساء أنواع ، منه الساخن ، والبارد ، بدون لحم أو بلحم . وكان طبقه المفضل هو الكستليتا ، أتعرفين سر " الكستليتا " ؟ إن سرها كله فى دق اللحم المفروم جيدا قبل قليه على النار . وكانت شهية بريجنيف الممتازة تشجعنى على اتقان الطهو . وكان يمتدحنى دوما بقوله : ليس هناك الذ مما تطبخينه . وأسألها : " ولكن لماذا كنت تتجنبين السفر مع برجينيف ، والظهور معه فى الأماكن العامة ؟ " . تقول فيكتوريا : " كيف ؟ لقد كنت أسافر معه كثيرا ، كنت معه فى زيارته للهند ، والتقيت بجواهر لال نهرو ، وركبت الأفيال

، وشاركت فى الاجتماعات الرسمية التى تحدث فيه بريجنيف ونهرو . وسافرت معه إلى فرنسا أيضا ، وأذكر أننى عانيت من موقف حرج ، فقد وصلنا إلى باريس فى زيارة رسمية ، وفى المطار فوجئت بمظاهرة من اليهود تقف بعيدا وقد رفع المتظاهرون لافتات من بينها لافتة كتبوا عليها فيكتوريا بيتروفنا ، ساعدى شعبك اليهودى على انتزاع حقه فى الهجرة إلى وطنه اسرائيل " . وكان موقفا محرجا للغاية ، فأنا لست يهودية كما يشاع عنى ، وكما يقول لى الكثيرون : " أنت تشبهين اليهوديات جدا " ، ولكن كان من المحرج أيضا أن أنفى أننى يهودية ، فقد يفكرون أننى أنكر قوميتى مثلما جرت العادة عندنا . ولكنى صراحة لم أكن أحب تلك الرحلات ، ولم أكن أسافر إلا إذا لم يكن هناك مفر ، لأننى فى تلك الرحلات لم أكن أستمتع بشىء ، إذ أجلس فى سيارة الرئاسة ومعى دليل يقول لى : " التفتوا ناحية اليمين تجدون برجا إنه برج ايفيل الشهير ، التفتوا يسارا تجدوا كنيسة السيدة العذراء " ، بينما لاتتاح لى الفرصة لمشاهدة شىء فى واقع الأمر ، وتبدو كل الأشياء مسطحة ومن الخارج . " وقررت أن أسألها عن موقفها من نينا خروتشوفا ، زوجة خروتشوف الذى تولى بريجنيف مكانه ، فقلت لها : " وكيف كانت علاقتك بنينا زوجة خروتشوف ؟ " . تقول فيكتوريا : " كانت علاقتى بها طيبة ، وأذكر أننا كنا نعالج سوية فى مصح واحد بتشيكوسلوفاكيا فى نفس الفترة ، وهى امرأة كريمة ومتعلمة وذكية . وبعد إقالة خروتشوف عام 1964 كنت أصادفها فى مستشفى الكرملين أحيانا ، ولكن عائلتينا لم تتصادقا عامة ، لكن العلاقات بيننا كانت طيبة . " وعاودت الالحاح على ما أقصده سائلة فيكتوريا : " لكن هل اتصلت بها فى الأيام العصيبة التى مرت بها بعد عزل خروتشوف ؟ " . فأجابتنى صراحة : " كلا " .

وودعتنى وهى تنهض من مقعدها مسلمة قيادها للخادمة " سفيتلانا " ، ثم مضت ببطء تغادر الغرفة . وفكرت : كم هى امرأة بسيطة وعادية ، عادية لدرجة يبدو لى معها أننى لم أفهم منها شيئا على الاطلاق .

انصرفت فيكتوريا وظهرت فى الغرفة من جديد لودميلا زوجة ابنها يورى ، لودميلا البشوشة التى تبدو أصغر من سنها الحقيقى ، لقد تجنبتها الشائعات هى الأخرى ، ولم تمسها بشىء . ربما لأنه لم يكن بوسع أحد أن يقول شيئا فى حق امرأة ذكية ومتزنة كهذه ، شاءت الظروف أن تدرك أكثر من اللازم ، وأن تتمكن من القيام بأقل من اللازم . سألتها : " يا لودميلا .. ساعدينى على أن أتعرف إلى طباع فيكتوريا بريجنيفا " قالت وهى تجلس : ماذا أقول لك ؟ . لقد فكرت فى أمرها كثيرا ، إنها ذات طبيعة طيبة ، ولكنها ليست سهلة ، كانت دائما قليلة الكلام بين الناس ، ومنغلقة ، لايسهل الحديث معها ، ولا يسهل جرها إلى الكلام . وكانت جميع أنواع الحفلات والاستقبالات الرسمية بالنسبة لها عذابا لا يحتمل ، حتى عيد المرأة العالمى ، فكانت دائما تتوجه إلى بقولها : " اذهبى أنت يا لودميلا ، وقولى أنت كلمة تهنئة أو شكر " . وكنت أقول لها : " لكنهم يريدون الاستماع إليك أنت ، وليس إلى ، أنت زوجة ليونيد ايليتش بريجنيف وليس أنا ، أنا فى نهاية المطاف زوجة ابنه لا أكثر " . وكانت دائما تحترم مكانة زوجها فى البيت

. وأذكر أننا حين كنا نقوم بالتصييف فى الجنوب ، كنا نسبح فى البحر وبعد السباحة كنا نحب أن ننام قليلا ، لكنها كانت تجبرنا على أن نظل دون راحة أو نوم جالسين وراء مائدة الطعام حتى يصل بريجنيف فنأكل معه ، أو نتظاهر بذلك على الأقل . وكان دائما يأتى حاملا باقة زهور يقدمها إليها قائلا : " هذا لك يا فيكتوريا " . ولم أشهدها أبدا تتشاجر معه ، وإذا كان هناك شىء لا يعجبها كانت تسكت وتلزم الصمت ، مكتفية بمظهرها الذى كان يبدو عليه العقاب الواضح . ومع ذلك فإن حياتها لم تكن جافة إلى هذه الدرجة ، فقد كانت زوجات مازوروف ، وكولاكوف ، وجروميكو يترددن على البيت ، ويجلسن معها ويلعبن الورق .. وحتى بعد موت بريجنيف وبدايات الهجوم عليه فى الاعلام والتليفزيون ، ووصف عصره بأنه عصر الركود ، كانت تكتم ما بنفسها ولا تظهر شيئا ، ولكن صوتها ارتجف مرة وهى تعلن أنها ستنتقل من المنزل الصيفى الذى كان مخصصا لهم أيام بريجنيف ، وذات مرة ضايقتها السلطات بشىء ما ، فقالت بصوت مرتجف أيضا : " صحيح .. لأننى أنا المذنبة فى اشعال الحرب فى أفغانستان " . ولكنها لم تكن تتدخل أبدا فى القضايا السياسية ، وكانت تهتم بالشئون العائلية أساسا .

وخرجت مع زوجى مساء يوم سبت ، وكنا فى سيارتنا نتنزه فى شارع لننجراد بموسكو ، وقال لى زوجى : " انظرى .. إن سائق هذه السيارة يحاول أن يسبقنى بسيارته مخالفا كل قواعد المرور " ، وعندما التفت إلى حيث أشار زوجى وجدت سيارة أجنبية . وكان عدد السيارات الأجنبية قليلا جدا فى موسكو وقلت لزوجى : " لاتسمح له بأن يسبقك ، هل يظن أن بوسعه القيام بكل شىء لمجرد أنه أجنبى " . وبالفعل لم يسمح زوجى لسائق تلك السيارة بأن يسبقه . ومضى زوجى يقول : " إنها سيارة غريبة من دون أية أرقام ؟ " . وخلال ذلك تمكن صاحب السيارة " المرسيدس " من تجاوزنا منطلقا للأمام . وحدقنا فى الشخص الجالس وراء مقود السيارة ، فرأينا عزيزنا ليونيد ايلتش بريجنيف بنفسه جالسا وقد أمسك بالمقود متوترا ، محدقا فى الطريق أمامه . ولم يكن هناك أحد بجواره ، ولكن فى المقاعد الخلفية كان يجلس شخص ما يلوح لنا بقبضته مهددا . إنه " فلاديمير ميدفيديف " الحارس الشخصى لبريجنيف ثم لجورباتشوف بعد ذلك . وسرعان ما تبعت " المرسيدس " سيارة فولجا سوداء مليئة بالعسكريين المستائين من سلوكنا ، وكانوا يلوحون لنا بقبضاتهم مهددين أيانا . وقلت لزوجى : " يا عزيزى ترقب العقاب غدا " . لكن شيئا مما انتظرناه لم يحدث . ومرت الحكاية بسلام . كان اقتناء السيارات الفاخرة أحدى هوايات بريجنيف . فما الذى بقى من ذلك العالم الأن لفيكتوريا ؟ صهرها الذى سجن ؟ أم ابنتها التى التهمت الشائعات سمعتها ؟ أم ابنها الذى اضطر للتقاعد المبكر ؟ أم تجاهل المجتمع لها ؟ أم الحملات التى تشن على زوجها باعتباره رمزا لعصر كامل من الركود والفساد ؟ . أم الممثلون الكوميديون الذين يكسبون خبزهم بتقليد بريجنيف والسخرية منه ؟ أم وحدتها وهى عمياء ؟ فيكتوريا .. فيكتوريا .. لعل الاسماء لا تعطى للناس صدفة ، إذ أنها تلتصق بهم وتصبح إشارة إلى شيء ما فيهم .. فيكتوريا ؟ إن اسمها يعنى " الانتصار " .. فعلى من وأين انتصرت ربة البيت العادية هذه ؟ .. يبدو لى أنها انتصرت على

ناديجدا كروبسكايا العظيمة نفسها ، ففى نهاية القرن انتصرت فى الكرملين فى شخص فيكتوريا المرأة ربة البيت على تلك المرأة التى خلقت من قبل عوالم الرجال ، وكانت جزءا من أحلامهم ، ونفساً من أنفاس المجتمع . لقد اختفت المرأة الجسورة ، وسادت المرأة الموظفة .

***

ظاهرة اسمها رائيسا جوربا تشوفا

رائيسا جورباتشوفا ، امرأة نحيفة ، صارت تظهر على شاشات التليفزيون مساء كل يوم تقريبا فى كل مكان : فى موسكو ، وفى القرى النائية ، والمقاطعات ، حتى صدعت رؤوس الرجال والنساء وفلقتهم . ذلك أن تلك المرأة الوسيمة ، المبتسمة ، التى ترتدى فى اليوم الواحد عدة فساتين مختلفة تلائمها بشكل جيد ، لم تنل إعجاب الجميع أبدا . لماذا ؟ ..

إنها لم تكن تزعج الرجال بحد ذاتها ، ولكن الرجال كانوا ينزعجون من واقع أن : " الرجل يسحبها وراءه باستمرار أينما ذهب ، ضاربا بذلك مثالا جديدا للعلاقة بين الرئيس وزوجته ، ومن المشكوك فيه أن يكون ذلك المثال طيبا . لأن امرأتى التى تشاهد التليفزيون يوميا ، وترى يوميا كيف تلازم رائيسا زوجها جورباتشوف ، سترغب بدورها فى أن تتبعنى أينما ذهبت وفى كل مكان . " .

ولكن الوضع كان مختلفا بالنسبة للنساء ، هنا كانت رائيسا جورباتشوفا بحد ذاتها مصدرالازعاجهن . " هل هى شابة ؟ أم أنها تبدو أصغر سنا من عمرها الحقيقى ؟ " طبعا إنها شابة ، أو تبدو شابة ، فما الفرق ؟ لماذا لا تبدو كذلك ؟ إنها لا تقوم بشىء ، ولا تقف فى الطوابير الطويلة المنهكة بالساعات من أجل الخبز أو اللبن وهى لا تترك الرجل لحظة ، فما الذى يجعلها تشيخ ؟ . " لكنها والحق يقال تعتنى بشعرها وتقصه على أحدث موضة . " وما المشكلة فى ذلك ؟ . من شأن أية امرأة أن تبدو بما لا يقل جمالا عن رائيسا إذا كانت فى وضع زوجة رئيس البلاد . ولكن للانصاف لابد من القول بأن بعض النساء الاخريات اللواتى شغلن من قبل مكان رائيسا لم يتمتعن بمثل هذا المظهر الأنيق الذى حرصت عليه رائيسا جورباتشوفا " هل هى نحيفة بالفعل ؟ " . ربما كان مرض ما ينخرها من الداخل فيجعلها تلوح نحيفة ؟ . هل أنها مثقفة تفهم فى الفن ؟ وما الذى يتبقى لها غير التعرف إلى الفنون مادامت لا تفعل شيئا ؟ .

ومع ذلك كان الملايين من الناس ، فى جو من مثل تلك الأحاديث والتعليقات يندفعون إلى شاشات تليفزيوناتهم يوميا ، ليس فقط للاستماع إلى ما سيقوله اليوم جورباتشوف ، ولكن لكى يشاهدوا ، رائيسا أيضا ، وما الذى ترتديه ، وكيف تبدو هذا المساء . ومع ظهور رائيسا جورباتشوفا كزوجة للرئيس ، والسيدة الأولى للبلاد ، راجت اغنية تهكمية صاغها مجهولون على نمط الاغانى الشعبية الروسية تقول : " تنطلق روسيا فى العربة ، العربة ذات الجياد الثلاثة ، جورباتشوف ، ورائيسا ، والبيرسترويكا " ، وكما راجت مختلف النكات اللاذعة التى تمسى العزاء الوحيد للشعب فى مختلف الأزمنة . أما بالنسبة لى ، فقد كان ظهور رائيسا

مع التحولات السياسية وانفتاح المجتمع الروسى على التقاليد الأوربية يمثل دون شك نوعا من انتصار العنصر النسائى ، عودته للتأثير بعد سنوات طويلة من الاحتجاب ، حتى لو كان ذلك الظهور وتلك العودة قد اكتفت فى البداية بموقع صغير هو موقع زوجة " الرجل الأول " عادت المرأة التى تم تجاهلها طويلا ، حتى أن عدد النساء الروسيات العاملات فى مجلس السوفيت الاعلى لم يتجاوز خمسة بالمئة من مجموع العاملين ، بينما ليس فى روسيا كلها الا وزيرة واحدة هى وزيرة الشئون الاجتماعية ، بينما تمثل المرأة أكثر من نصف تعداد سكان روسيا ، أى حوالى خمسة وسبعين مليون امرأة . رجعت مرة أخرى وكأنها تقول : " إننا زوجاتهم موجودات ، ولسنا كمالة عدد " .

ذات مرة قال لى رجل مسن وفى عينيه شيء من الاحراج : " عذرا يا لاريسا أنت امرأة وصحفية تعرفين الكثير ، فمن هى فى رأيك رائيسا جورباتشوفا ؟ إنى أحدق فيها كل مرة تظهر على شاشة التليفزيون ، وأمعن الفكر دون أن أعرف هل هى امرأة ذكية أم لا ؟ إنها تترك انطباعا غير مفهوم ، فما رأيك أنت ؟ " . ولم أجد ما أقوله ردا على سؤال صديقنا المسن .

جاءت رائيسا تيتارنكو إلى موسكو من مدينة " يستيرليتاماك " بمنطقة الأورال فى سيبيريا عام 1949 ، واستطاعت أن تلتحق بالجامعة دون أن تبذل فى ذلك جهدا خاصا ، لأنها كانت قد حصلت قبل ذلك على ميدالية التفوق عند انهائها المدرسة الثانوية فى سيبيريا ، وكانت هناك قاعدة أن تكون امتحانات القبول فى الجامعة مسهلة لمن تفوقوا فى المدارس . وشغلت رائيسا منذ العام الدراسى الأول لها مكانا يليق بها وسط الطلبة الاخرين ، عندما انضمت إلى جموع ذلك الصنف من الطلبة الذى يقال عنه " حفاظون للدروس ، يصمونها صما " وكانت مجرد فتاة من فتيات المساكن الطلابية الكثيرات ، اللاواتى يشكلن الغالبية العظمى من الدارسات ، واللاواتى تبرز على خلفيتهن " بنات موسكو " ولأنهن - أى بنات موسكو - يجدن لأنفسهن أعمالا أكثر متعة من سهر الليالى على الكتب والعلم . وفى كلية الفلسفة - حيث درست رائيسا - كانت توجد مجموعة كبيرة من البنات الحسناوات اللاواتى يحتجن لمجرد الحصول على شهادة - أى شهادة - وهن عادة من الفتيات المتأنقات الفارعات . فكيف لفتاة بسيطة مثل رائيسا ، قادمة من سيبيريا ، أن تلحق بهن ؟ . لذلك عاشت رائيسا حياة خاصة بها . وكانت تعرف أنها إما وسيمة ، وإما مقبولة الشكل كحد أدنى ، بل وكانت تحظى باعجاب عدد غير قليل من الشبان الذين يدرسون معها ، والذين يتسابقون لدعوتها لحفلات الرقص التى تقيمها الجامعة . ولكن هل كان لرائيسا فى تلك السنوات الاولى المبكرة خطيبا آخر ، أو صديقا مقربا قبل جوربا تشوف ؟ . ان رائيسا تلزم الصمت اليوم بشأن هذه المسألة . ولكنى أعلم تمام العلم من خلال تجربتى الشخصية الجامعية أنه كانت هناك دائما فرص سانحة أمام بنات الجامعة للاقتران بالصحفيين ، بل والدبلوماسيين ، وذوى المؤهلات العلمية العليا ، وآخرين ممن كان يقال عنهم : " إن لهم مستقبلا عريضا " . وكانت الفرص سانحة أيضا للزواج من طلبة بسطاء من النوع المنتشر فى الجامعات والمساكن الجامعية . لكن رائيسا تيتارنكو لا تعد

من هذه الفئة أو تلك من البنات ، وربما يمكن ادراجها فى فئة أخرى من الفتيات اللواتى لا يتزوجن الا بعد محبة جارفة تملك زمام القلب . نعم إنها من هذا النوع ، ويرشحها لذلك طبعها الأبى والاستقلالى . ولهذا كانت رائيسا منذ البداية تعرف أنها لن تربط حياتها بأحد الدبلوماسيين ، وأنها لن تدلف الى مجال العائلات والأسر الثرية ، مادام المرشح للزواج منها لا يرق لها . انها لن تقترن الا برجل تكون مقتنعة تماما بأنه أذكى الرجال وأجمل الرجال فى العالم . ويفكر على نفس النحو جورباتشوف أيضا . وبهذا المعنى ، عثر الاثنان على بعضهما البعض : شابان فى مقتبل العمر ، وفدا الى العاصمة من الأطراف النائية ، مجتهدان ، يقظان ، يفتشان عن الحقيقة ويتمتعان بقدر كاف من الذكاء واللباقة . زكان الاثنان يعرفان أنهما يبدآن من الصفر ، ومن مجرد وجودهما وقدراتهما الشخصية ، لكنهما فى المقابل يحلمان بأن يصلا لكل شىء معا . ولوكان جورباتشوف قد تزوج من فتاة ميسورة الحال من بنات موسكو ، ولو كانت رائيسا اقترنت بشاب يكون والداه من النافذين المؤثرين ، لما حقق الاثنان ما حققاه معا . وعلى سبيل المثال فقد كان ألكسى ادجوبى رجلا ذكيا ، وصحفيا موهوبا قادرا ، لكنه ظل فى التاريخ ليس باعتباره " الكسى ادجوبى " ولكن باعتباره فقط صهر لنيكيتا خروتشوف . وقد تفادى ميخائيل جورباتشوف ذات المصير ، مقررا أن يجرب حظه ، معتمدا على ما لديه هو ، وليس على ما سيأخذه من الاخرين مما يضيع عادة باختفاء الاخرين . وأذكر أن رائيسا قالت لى مرة فى قاعة بقصر المؤتمرات : " لقد توفرت لدينا بعد انهاء دراستنا بالجامعة فرصة للبقاء فى العاصمة موسكو ، وكان أساتذتنا فى الكلية يلحون علينا أن نبقى ونواصل دراستنا للحصول على شهادة الدكتوراه ، لكننا رفضنا ، وسافرنا الى مسقط رأس جورباتشوف ، لكى نبدأ حياتنا العلمية ، وقد دل الزمن على صحة اختيارنا ذلك " .

نعم لقد دل الزمن على صحة ما استقر عليه الاثنان حينذاك ، لأن جورباتشوف بدأ منذ ذلك الحين يصعد السلم الحزبى بسرعة وثقة ، وكان لدى رائيسا هى الاخرى " سلمها الحزبى " الخاص بها اى التدريس فى الجامعات ، وكان المفروض أن يقودها ذلك هى الاخرى الى الترقى ، لكنها سرعان ما اكتشفت أنها لن تلحق بجورباتشوف فى صعوده السريع . ولعل رائيسا لم تكن تحاول أن تسبق زوجها ، فقد كانت ـ من زاوية ما ـ امرأة ضعيفة ، وفى ضعفها كانت تكمن قوتها .

ظلت رائيسا لسنوات طويلة ، وخلال أفضل سنوات عمرها تقريبا ، زوجة من زوجات رجال النخبة الحاكمة فى الاقاليم بكل ما يترتب على ذلك من تبعات ونتائج . وبذلك فإنها قد اجتازت من دون شك تجربة التعامل مع زوجات الرؤساء الأكبر وضعا ومقاما من زوجها ، وتعلمت كيف تحتفظ بالمسافة المطلوبة المعروفة بينها وبين زوجة المدير الأكبر . ولعل ذلك ام يكن يروق لها ولم يكن يتفق مع طبيعتها الجامحة المستقلة . لكنها كانت تجيد التصرف فى كل الحالات ، وبمرور بعض الوقت ، كان الزمن يتبدل قليلا ، فتجد رائيسا نفسها وقد أرتقت مع جورباتشوف درجة لأعلى ، وتجد أن نساء أخريات يقفن عند درجة أقل من نفس

السلم ، وكانت فى هذه الحالة أيضا تتقن فن الحفاظ على المسافات مع الاخرين . وقد قالت لى زوجة أحد المديرين الذين عملوا تحت أمرة جورباتشوف فى ستافروبول ، ومن ثم كانت تحتك برائيسا بصفة شبه دائمة : " كانت رائيسا اذا تكلمت ، تتكلم بنبرة وعظية ، وبشعور راسخ من الثقة فى أنها معصومة عن الخطأ ، فتتحدث كأنها تنطق بالحقائق المقدسة اليقينية ، وكانت بذلك تستثير أعصابى الى أقصى مدى ، وكانت تسيطر على وهى تتحدث فكرة واحدة أن ألطمها على رأسها ولو لمرة واحدة ، لكنى كنت أعرف أن ذلك سينقلب على زوجى وينعكس على أحواله لأنه يعمل تحت رئاسة جورباتشوف ، فكنت اتجرع مواعظها بصمت " . إن هذه الازدواجية : الخيلاء والعجرفة تجاه المرؤوس الصغير ، والتملق أمام الرئيس الأكبر ، تعد من السمات النمطية العامة لجميع من يجدون أنفسهم فى السلطة . ومع أن هذه الصفة لم تغدو الصفة الأساسية لرائيسا جورباتشوفا ، إلا أنها كانت أحدى صفاتها المحورية .

" إن رائيسا امرأة طيبة القلب ونبيلة حقا . إنها تعتنى بالأطفال اليتامى وفقا لأفضل التقاليد التى رسختها زوجات الكرملين السابقات . إنها تعطى أموالها للأطفال . " . ولكن : لماذا كلما أعطت رائيسا وزاد عطاؤها زاد معه الانزعاج منها ؟ . " إنها تمنح ما تمنحه لأنها لا تعرف أين توجه أموالها " . " هل أنها تعطى حقا ؟ كلا انها تحاول أن تكسب مشاعر الناس إلى صفها ، وهو أمر منفر " . وتعود لذاكلاتى كلماتها لى مرة بعد الأخرى : " أخشى أننا لن نلحق خلال أربع سنوات " وأسألها : " ما الذى لن تلحقان به ؟ " . وتصمت رائيسا كأنها تقول لى : " افهمى كما يعن لك أن تفهمى " وعلى أية حال فإن تلك العبارة كشفت عن مشاركة رائيسا المباشرة فى العملية الاجتماعية . وأعتقد أنه يمكن القول دون الوقوع فى المبالغات أن رائيسا جورباتشوفا قد قامت بدور سياسى أكبر من أية زوجة أخرى من زوجات الكرملين ، وأنها قامت به متسترة وراء أعمال الرحمة والخير والبر الانثوية . بل وأجرؤ على الاعتقاد بأن دورها كان أكبر حتى من دور ناديجدا كروبسكايا زوجة لينين ، لأن كروبسكايا كانت تعمل فى سبيل أفكارها المجسدة فى شخص لينين ، أما رائيسا فلم تكن تعمل فى سبيل شىء محدد ، كانت تعمل فقط فى سبيل ميخائيل جورباتشوف إنه " أفكارها " ، و " مبادؤها " ، إنه على حق لأنه هو . هذه هى السمة الأساسية لأخر زوجات الكرملين . وقد مضت رائيسا فى ذلك المجال أبعد حتى من فيكتوريا بريجنيفا فى علاقتها ببريجنيف ، لأن رائيسا أخضعت نفسها بالكامل لزوجها بحد ذاته ، وبغض النظر عما مثله أو يعنيه . وبمساعدة الشاشة التليفزيونية ، وبرشاقتها المعهودة وهى تقف وراء جورباتشوف ، حولت رائيسا المطبخ السياسى للأشتراكية إلى مطبخ منزلى جديد ذى مذاق رأسمالى خاص . ويحضرنى هنا الحديث الذى دار بيننا ذات مرة، وكان بمناسبة الهجوم الشديد الذى شنه النائب سوخوف على جورباتشوف ، وأردت أن أرفع من معنوياتها فقلت لها : " إن ظهورك على الشاشة يزيل الملل من الاجواء الرسمية ، ولو لم تكونى أنت هناك ، لما اعتنيت حتى بالاستماع إلى جورباتشوف . أما الأن فإننى أدير مفتاح القنوات وأنا أفكر : هل ستظهر رائيسا جورباتشوفا أم لآ

؟ وبأية فساتين ستظهر ؟ ، وكيف ستبدو .. " . لكنها استاءت منى للغاية ، وقرعتنى بقولها : " ما هذا الذى تقولينه لاريسا ؟ .. ليس ذلك بالكلام الجاد . لابد من الاستماع إليه . لابد " .

ولكن ما الذى يعنيه كل ذلك ؟ وكيف يسمى ؟ . تصوروا إن الأمر فى غاية البساطة ، وأبسط مما يبدو لنا بكثير ، إنه الحب والتجانس .. أو وحدة الأضداد . فقد حافظت الأسرة على نفسها عبر تقاطعات هياكل السلطة المتنافرة . وعندما وجدت الأسرة نفسها عند دفة القيادة أرادت أن يكون المجتمع كله متجانسا مثلها ، دون أن تتأمل فى ماهية ذلك التجانس المنشود . ولم تكن رائيسا ، ولا كان جورباتشوف من المثاليين ، لكنهما دخلا المصيدة . لقد سعى لينين وكروبسكايا أيضا إلى التجانس فى المجتمع ، وأقاما لذلك آلية وماكينة خاصة لصنع ذلك التجانس ، وعندما وصل الزوجان جورباتشوف ورائيسا للحكم ، واجها خيارا صعبا : إما إصلاح الماكينة القديمة ، وإما تحطيمها نهائيا والتخلص منها . وحاولا أن يصلحا الجهاز القديم العتيق ، فإذا بأجزائه تتساقط بينهما ، فقررا على وجه السرعة الوثب بعيدا لكى لا يهلكا تحت أنقاض الجهاز القديم .

غابت رائيسا عن شاشة التليفزيون لمدة طويلة بعد احباط انقلاب اغسطس 91 ، وانتشرت حينذاك اشاعات قوية بأنها عانت الكثير فى تلك الأيام مع جورباتشوف فى منفاه فى فوروس ، أنها عاشت على أعصابها كل دقيقة من دقائق تلك الأيام ، بل وقيل أنها نتيجة للانفعال الشديد أصيبت بجلطة فى المخ ، وأن ذراعا من ذراعيها شلت . ولكن لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى ظهر فى كل مكان فى روسيا كتاب من تأليفها بعنوان : " إننى آمل " وعلى الكتاب صورة لها بوجه مبتسم كأنه تعويض للجمهور عن غيابها . وقد ندد الناس بالكتاب قائلين أنه ممل ، ولا يثير إلا الملل لدى قرائه ، وأنه كتب بروح الحزبية التى تتصور أنها لا تخطىء ، وأن الكتاب ينتمى فى مجمله للعصر الذى انقضى ، كتاب من الأمس الذى ودعته روسيا . والواضح أن القراء توقعوا شيئا آخر غير الذى كتبته رائيسا ، كانوا يتوقعون من زوجة جورباتشوف - التى يناقش معها " جوربى " - هكذا كان يسمى الشعب السوفيتى جورباتشوف كل شىء على حد قوله - أن تحدثهم عن موقفهما المشترك من أهم القضايا السياسية ، وعلاقتهما المشتركة بهذا الشخص أو ذاك ، وخلافاتهما مع المارشالات ورجال السياسة ، وكيف خططا معا لهذه الخطوة الهامة أو تلك من خطوات البيرسترويكا . لكن الكتاب لم يتضمن شيئا من ذلك أبدا . ولكنى أعتقد أن هذا الكتاب الممل كان رائعا ، ببطلته ومؤلفته التى لم تكتب حرفا أزيد مما ينبغى قوله فى صفحات الكتاب التى تقارب المائتى صفحة . والسر فى روعة هذا الكتاب أنه يرسم الملامح النفسية لمؤلفته بدقة متناهية تفوق دقة علم الرياضيات .فمن هى إذن جورباتشوفا الظاهرة التى ملأت الصحف فترة وخطفت أبصار الغرب فترة ، ولم تفارق صورتها شاشات التليفزيون للحظة ؟

" إنها من لحم زمانها ودمه : طفلة الحرب العالمية الثانية ، فتاة ما بعد الحرب التى نشأت فى عائلة متواضعة ، شابة متفوقة فى دراستها ، وزوجة لرجل حزبى عمل فى الكمسمول والحزب ، واستطاع أن يصعد إلى المركز من الأطراف

النائية بثبات حتى بلغ قمة جبل الحكم . إنها جسور ومتواضعة ، خشنة ووديعة ، واثقة من نفسها وغير واثقة فى نفسها . وكان سلوكها الأكثر مدعاة للدهشة ، هو سلوكها أثناء أيام انقلاب اغسطس الشهير ، إذ أنها لم تكن تتصرف برجولة ، ولكن بأنوثة . فقد تملكها الخوف على مصير عائلتها ، على مصير جورباتشوف ، وأطفالها ، كانت خائفة إلى درجة المرض . وكان ذلك عملها الرئيسى السياسى فى تلك الفترة . ولم يتعلم المجتمع الغارق فى الحيل شيئا من خوف المرأة . لكن ذلك ليس ذنب رائيسا على أية حال . لقد قالت بخوفها كلمتها الانثوية الرقيقة ، وستبقى هذه الكلمة ذكرى طيبة للاحفاد القادمين ، إلا إذا كان ذلك دورا تم أداؤه بإتقان شديد . يالهذه الألسنة الشريرة التى لا تدع أحدا فى حاله !

***

النهاية